الكتاب الثالث

« إن الرجل الذى يسأل الرحمة
أو يتقبلها من قوى ، رجل ضعيف
ليس جديرا بالحياة ، وأضعف منه
وأحقر من يتقبل الرحمة من ضعيف . »

رياسة النادى العربى

انصرم عام ٣٧ وأنا أبحث عن تعلة أتعلل بها فى المنفى فلا أجد ما أتعلل به ، وأتى عام ٣٨ ومضت أيامه الأولى كما مضت أيام سلفه وحدث فى عصر أحد الأيام أنى أحسست بقلق يساورنى لم أعرف مصدره ولا مرده ، فلم أغير فى حياتى شيئا ، كما لم أكن أرقب جديدا . ولم يكن بالقلق المزعج الذى تعودت إحساسه قبل وقوع أحدى الكوارث ، ولكنه قلق عجيب ، ربما لم أحس مثله منذ زمن طويل . ربما كان أشبه بالقلق الذى يستحوذ على العروس يوم جلوتها . حدث لابد واقع ، أستطيع أن أقطع مقدما بأنه ليس بشرّ فى مجموعه ، ولكنه محفوف بالمخاطر . « ألفريدا . . » هذه تعيش الآن فى سويسرا ، ومن يدرى ... لعلها غادرتها إلى بلاد الاسكندناف ، وربما لم تغادرها ، وربما قدمت إلى برلين .. « إيرينا . . » وأين إيرينا الآن . . . محقق أنها على حدود مصر ، ربما كانت تنتظر أوبتى . آه ، ما أبعد الشقة ! . . . وما أمر الفرقة ! . . . ترى فيما أفكر ، وهذه صفحات طويناها بغرورنا وحماقتنا . شىء أجلّ وأعظم واقع لا محالة . . لعل المساعى المبذولة لعودتى إلى بلدى قد أثمرت . وهنا اهتزت أعطافى وترنحت ، وكنت طريح أريكتى أتقلب ذات اليمين وذات الشمال من الكسل قبل بضع دقائق ، فوثبت منها الى مكتبى ، وقد سرت الكهرباء من أطارفى الى كل جسدى ، فأخذت أنقر بالوسطى على زجاجة المكتب نقرات متزنة وغير متزنة ، واهتز كرسى تحتى . وكأنه لم يعد يقوى على حملى . فخلفته وفى المآقى دمعة تكافح للانسياب ، وتأبى العين إلا حبسها ، فبلعت ريقى مرات على المر والحنظل الذى ملأ فمى . أية مساع تلك التى أثمرت . . . وليس لى هناك والد ولا ولد ، وعائلتى متناثرة متقاطعة ، ولا صديق يرعى حرمة الصداقة ، ولا أنا من

ذوى الجاه أو السلطان فيطمع طامع إذا دار الفلك دورته وعاد إلىّ جاهى وسلطانى أن أرد إليه يده . إن الناس فى مصر ربوا منذ عشرات السنين على أن لا يفكروا إلاّ فى أنفسهم ، يعيشون فى هذا البلد الطيب على حذر من بعضهم البعض ، وهم معذورون ، فبلد لا يجد الواحد فيه لنفسه أى نوع من الحماية ، مضطر إلى حماية نفسه بنفسه ولو على حساب أخيه أو ابنه . ثم شجعت نفسى ، وقلت فى صوت مسموع : —

« وماذا عسى أن يكون ؟ . »

أصلحت هندامى ، وأخذت طريقى إلى مقهى « تسونز » أو مقهى الفنانين المغمورين ومقهى « تسونز » بمثابة ندوة لأسرة واحدة لا تربط أعضاءها الفنون والمتربة المشتركة فحسب ، ولكن الذى يربط بعضهم ببعض شىء آخر أسمى وأرفع من ذلك بكثير ، يربطهم الكفاح المستمر من أجل الحياة ، وروح التفاؤل التى تشع فى وجوههم الباهتة ، وحركاتهم العصبية ، وأحاديثهم الممزوجة بالحلاوة والمرارة ، يربطهم الصبر الطويل الذى عنده يلقى كثير من الصابرين سلاحهم . ولم يكد يستقر بى المقام طويلا ، حتى أبصرت ثلاثة أربعة من شباب العرب مقبلين علىّ يخترقون حشد الجلوس ، يتلفتون يمنة ويسرة كأنهم يبحثون عن أحد ، وما كاد أحدهم يقترب منى حتى نادى زملاؤه : « هذا هو » فجاءوا الى مائدتى ،

« مرحبا بكم . . فنجان قهوة من بن تسونس ـ تفضلوا . . »

« لا ، نشكرك ، فالجمعية العمومية معقودة الآن . »

« أية جمعية عمومية . . . . »

« جمعية النادى العربى »

قلت : « وهل من خدمة لكم أولها أستطيع أن أقدمها . . . »

« نرجو منك أن تساهم معنا فى عملية الانتخاب . »

« ولكنى لست عضوا فى النادى »

« لقد سددنا قيمة اشتراكاتك فى دفاترنا . »

« ومن فعل ذلك . . »

« أنت . . أنت نفسك ، فقد حسبنا تبرعاتك للنادى اشتراكات . تفضل . فليس ثمة وقت . سنتكلم فى الطريق . »

وأقلتنا سيارة إلى مقر النادى فى شارع « كورفر ستندام » أكبر شوارع المدينة وأجملها ، وفهمت منهم فى الطريق أن دورة المجلس القديم ورياسة النادى قد انتهت ، وأن اليوم موعد انتخاب المجلس والرئيس الجديدين .

ووجدت غرفة الاجتماع غاصة بالشباب الطموح المتوقد حماسا ، فأخذت مجلسى عند الباب وكان الرئيس فى آخر خطابه .

ثم بدأوا فى عمليه الانتخابات وفرز الأصوات ، وتمّ انتخاب مجلس الأدارة الجديد ، وأعلن انتخابى رئيسا من الجميع باستثناء ثلاثة أصوات . فتقدم إلى الرئيس القديم مسلما ومهنئا وأخذ بيدى وأجلسنى مكانه فى الصدارة . ودوت القاعة بالتصفيق والهتاف .

فكانت مفاجأة عجيبة كاد يطير لها صوابى ، فانتفضت فى مقعدى وكاد يغلبنى البكاء ولكنى حسبت حساب الموقف فجمعت كل مافىّ من قوة ، ثم نهضت واقفا ، وألقيت عليهم كلمة ليست بالطويلة ولا القصيرة فألهبت حماسهم فهتفوا أكثر من مرة للرئيس الجديد وقاطعوا الخطاب مرارا بالتصفيق .

رأيت الحياة تدب فى هذا الشباب المتوقد حماسا ، ولمست الفتوة والقوة ، والأيمان والبراءة مرتسمة على وجوه هؤلاء الأشبال ، فتحركت فى نفسى ثورة كنت أحسب أن نيرانها خمدت منذ زمن طويل ، فاخترقت صفوفهم أدب دبيب الفارس الذى وجد نفسه بعد أن فقدها ، أهزيد هذا ؛ وأمسح على كتف

ذاك حتى بلغت غرفة الرياسة ، وهناك طلبت عقد مجلس الأدارة الجديد وكان يتألف من سبعة أعضاء . وألقيت نظرة خاطفة على قانون الجماعة وأرشدتهم كيف تدار الجلسات . ولمح أمام عينى الهدف محددا وجليا ، فلم يبق علىّ إلا أن أرسم الخطة لتحقيقه ، ورسمتها فى لمح البصر فى ذهنى ، واقترحتها عليهم ، وطلبت تنفيذها فى الحال .

هذا الشباب المتحمس الآن هو أولا وآخرا شرقى ، فلا بد لى من معالجته طبقا لمزاجه إذا طمعت فى كسبهم إلى جانبى ، ومزاج العراقى كمزاج الشامى كمزاج الفلسطينى سريع الغضب وسريع الاسترضاء كمزاج المصرى ، وربما بزه بحكم الجو والدم الحارين . . . مزاج متطرف فى تقلبه ، يعرف أصحابه الصبر ، كما يعرفون الثورة على الصبر حيث لايجمل الصبر ، والثورة حيث الهلاك محقق ، كما عرف عنهم الزهد ، والخيلاء وحب الرياسة ، يزرعون ليأكلوا ، ولايزرعون ليأكل من بعدهم ، يرغبون فى أن يجنوا ثمر غرسهم بأيديهم وفى أسرع وقت ، فرديون متعجلون .

كل هذا دار برأسى كما دار برأسى أنى أكاد أكون غريبا بينهم ، فأنا المصرى الوحيد فى وسطهم ، بل إن مصريتى نفسها مطعون فيها . فحتى أضمن مؤازرتهم ، وأبعد الفتنة عن أن تدب فى صفوفهم ، ولكى أصل بالسفينة إلى بر السلامة اقترحت عليهم تأليف سبع لجان فى الحال .

١ ـ لجنة للمكتبة .

٢ ـ لجنة للألعاب .

٣ ـ لجنة للمحاضرات .

٤ ـ لجنة للرحلات القصيرة والبعيدة .

٥ ـ لجنة لمساعدة الطلبة .

٦ ـ لجنة للحفلات .

٧ ـ ولجنة لفلسطين أطلق عليها « لجنة الدفاع العليا عن فلسطين فى أوربا ـ المركز الرئيسى برلين . »

على أن تتألف كل لجنة منها من سبعة أعضاء ، وأن تجتمع مرة فى كل أسبوع فى دار النادى

وقصدت بذلك أن أشغل نحو ثلث الأعضاء بخلق مصلحة مباشرة لهم فى أعمال النادى مقدرا أن كل عضو من أعضاء اللجان المتفرقة له صديق أو صديقان بين الأعضاء ، يحابيه ويقف إلى جانبه عند الضرورة ، وبذلك أضمن معونة الأعضاء جميعا ، إن لم أضمن معونة الأغلبية الساحقة على الأقل ، وفى الوقت نفسه أدرب أكبر عدد منهم على أعمال اللجان والجمعيات والأحزاب . فسئلت وما فائدة هذه اللجان وما عملها ؟ أمهلونى قليلا وسترون عجبا . وتركت انتخاب اللجان الست الأولى يسير طبقا لرغبات الأعضاء ، ولم أتدخل إلا فى انتخاب اللجنة الأخيرة ، لجنة فلسطين ، لأنى كنت أدخرها لغرض أسمى من ذلك ، لمعركة سياسية حامية الأوار بينى وبين الاستعمار البريطانى ، فتخيرت أعضاءها من أصلبهم عودا وأكثرهم تطرفا .

ووعدت كل لجنة بأنى سأشترك معها فى جلساتها الأولى على سبيل الإرشاد ، وغادرت النادى ـ على غير ما دخلته ـ فتيا يسرى فى عروقى دم الشباب الحار ، مثلج الصدر ، مرفوع الرأس ، خفيف الحركة ، نشطا ، أكاد أثب فى مشيتى ، وكم وددت لو أن معى مرآة أبصر فيها وجهى ، فقد بدأت أشك فى نفسى ، فمن أين لى كل هذه القوة بعد أن مرت علىّ سبع سنوات عجاف أيبست عودى ، وقصمت ظهرى ، وجعلتنى فى عداد الموتى .

رياسة نادى العرب فى أحد بلاد أوربا ، وفى برلين على الخصوص ، قوة

لا يستهان بها لمن يعرف كيف يسوسه ، وسأعرف كيف أسوسه . لقد حان الوقت للميت أن ينفض التراب عن رأسه ، وأن يدوى صوته فى الشرق والغرب . لقد بعثت فىّ الحياة ، ولما يأت يوم البعث . سأقص على الأنسانية قصة موتى وحيائى ، وسأسمع الجمعية البشرية صوت بلدى وبلاد العرب ، وسأؤلب العالم ضـــد الاستعمار ، وسأنتفع بأخطائى ، وان أتوانى لحظة فى تأدية واجب علىّ حرمت من تأديته كذا من السنين الطوال المملة . . . وتغلب العقل الباطن على العقل الواعى فظللت أتحدث الى نفسى وتتحدث إلىّ نفسى طيلة الليل حديثا فيه رشد وفيه تفاؤل ، وفيه تهديد وفيه ثأر .

لجنة المكتبة

وفى الصباح قصدت أستاذ الأدب الألمانى فى جامعة برلين ، وهو حجة ثقة فى مادته ، وكان يحفظ لى فى نفسه حبا عميقا وودا خالصا لا تشوبه أية شائبة . وطلبت إليه أن يتفضل بزيارة دار الكتب معى ليقدمنى إلى مديرها ، لأن لى عملا هناك يتطلب توثيق علاقاتى به . فلم يتردد فى تلبية طلبى ، وحدثته فى الطريق عن قصة انتخابى رئيسا للنادى العربى فهنأنى ، ورجا خيرا . .

طلبنا مقابلة المدير ، وكانت صلته طيبة بالأستاذ ، فلقينا مرحبا ، وقدمنى اليه بوصفى صحفيا مصريا . فدرنا دورة بالمكتبة شرح لنا فيها أمورا كثيرة كنت أجهلها ، ثم عاد بنا إلى مكتبه لنشرب فنجانا من القهوة ، وندخن سيجارة . وهناك قدم لى كتابا من تأليفه بعد أن كتب عليه كلمة إهداء لى . أمسكت بالكتاب وقلبت فيه بضع صفحات ثم قلت فى سذاجة : —

« أنا شاكر لك هديتك وآسف فى الوقت نفسه يا سيدى المدير أن أقول لك فى صراحة أنى لا أستطيع الاحتفاظ بهديتك . »

وتوقفت عن الحديث برهة قصيرة كانت كالصاعقة . وقعت على رأس صديق الأستاذ فهدت كيانه ، وصمت المدير بدوره فى انتظار تعليلى لرفض هديته ، ونظرت إلى وجه صديقى الكاسف فعزّ علىّ ما أصابه من أسى وجزع بسببى ، فأردت أن أخفف عنه أساه بعض الشىء ، فهممت باستئناف الحديث فهمّ صديقى واقفا ، ومد يده إلى المدير مصافحا وشاكرا ، فطلب إليه المدير فى رقة أن يتريث قليلا والتفت إلىّ قائلا :-

« معذرة . . لقد قطعنا عليك حديثك ماذا كنت معتزما أن تقوله . . . »

قلت « كنت أحب أن أعلل لكما سبب خشونة مسلكى ، فربما التمس لى المدير عذرا . . لقد انتخبت أمس رئيسا للنادى العربى فى برلين ، وبودى أن أقف كل مافىّ من قوة على إنهاضه . وهدية المدير غالية لاشك . ولكنى مرتبط بعهد مع نفسى ومع زملائى العرب على أن أضحى فى سبيل رفع علم النادى بكل ما أملك من غال وثمين . وقد فكرنا فى تأسيس مكتبة له ، فرأيت أن تكون هديتك حجر الزاوية فى المكتبة المزمع إقامتها فى أقرب فرصة . »

فانفرجت أسارير صديقى ، وسرىّ عنه ، وابتسم المدير وقال : - « مادامت هذه رغبتك ، وهذا قصدك ، فلم لا أساهم أنا ودار الكتب فى هذا العمل الطيب . . احتفظ بهذه النسخة لك . . » ثم حك جبينه بيمينه وقال :-

« أيرضيك أن نقدم لمكتبتكم مائتى كتاب . . »

قلت « لا ، والله . . بل خمسمائة ، إننا نتفاءل كثيرا فى بلادنا بهذا الرقم . »

وخشيت أن تكون كتب دعاية فقضّيت على قولى مسرعا :-

« على أن أختارها أنا . »

« لك ذلك ، ولك فوق ذلك بعض الجوازات لاستخدامها فى تنظيم مكتبتكم »

قلت . « على أن يصلنا هذا وذاك الليلة فى الساعة الثامنة »

« لك ذلك . »

قلت « ونفقات النقل »

مبتسما « علينا »

قلت « اتفقنا بقى الاختيار »

وعلّمت على الكتب المطلوبة ، وودعنا المدير إلى الباب الخارجى وهو يلح علىّ فى التردد عليه .

وفى الطريق إلى الجامعة جذبنى الأستاذ إليه وهو يقهقه . أنا معجب بك ، حسبتك قد جن جنونك ، لقد كشفت عن دهاء لم أكن أعرفه فيك . ما أبسطنا نحن الألمان . »

وفى منتصف الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم انتظم عقد لجنة المكتبة وانتخبنا من بين أعضائها الرئيس ، والسكرتير وأمين الصندوق ، ودارت مناقشة فيما يجب عمله فأجمعوا على أنه يتعذر عمل شىء لأنه لا يوجد لدى اللجنة مال . فأجبت بل يمكن عمل كل شىء إذا نحن أعملنا رءوسنا ، والمال لا يعمل الرجال ، ولكن الرجال هم الذين يعملون المال . فليبد أحدكم رأيا كيفما كان ، ولأبدأ أنا باقتراح الآتى عليكم .

١ ـ نفتح اكتتابا فيما بيننا باسم المكتبة .

فقاطعنى بعضهم قائلا : ـ « لن يزيد مجموع ما نكتتب به عن ثمن بضعة كتب ، إن شئت فقل كتابين ثلاثة كتب . »

فلم أكترث لمقاله واستأنفت كلامى .

٢ ـ وليكتتب كل واحد منا بالكتب الفائضة عنده .

وهنا قاطعنى أكثر من واحد : ـ لاغنية لنا عن كتبنا وإذا استغنى أحدنا عن كتاب فأغلب الظن أنه كتاب لانفع فيه . » وهنا قرأت على جباههم ماهذه الاقتراحات التافهة غير الموصلة إلى شيء كبير » فقد استأنفوا الحديث قالوا : ـ « أهذا كل شيء عندك . . . »

قلت فى رفق : ـ « لم أقل كل شيء فلم لاتمهلونى قليلا . . . »

٣ لنكتب كتابا دوريا إلى المؤلفين المشهورين والناشرين نستهديهم كتبهم ونظرت فى ساعتى فألفيتها تقترب من الثامنة فقلت للسكرتير اكتب نص الكتاب الذى سنرسله للمؤلفين . » ـ

فردوا ساخرين : « عندنا وقت . سنكتبه نحن فى فرصة أخرى . هل انتهيت من اقتراحاتك . . . »

فأجبت فى لغة الواثق من قوله : ـ « لا » ثم صمتُّ ، فقالوا « هات ماعندك . . »

فقلت فى تؤدة واستحياء : « على أن نفتتح المكتبة بخمسمائة كتاب » »

فقال أحدهم فى عصبية متزايدة : ـ « ومن أين لنا هذا . . . ونحن لو أخذنا بجميع ما أشرت به ، وفرض وكتب لنا النجاح ، فأننا لن نفتتحها قبل العام المقبل بمشيئة الله » .

« إن لك ما تشاء إذا صحت مشيئتك ، وسنفتتحها الليلة بهذا القدر من الكتب لأن المشيئة صحت على ذلك . »

وتبادلت معهم بعض النكات حتى دق الباب فقلت : ـ انفتح الباب ولنفتتح المكتبة . »

وظهر الحمالون ومعهم صناديق الكتب والجزازات وغيرها من مستلزمات المكاتب ، فخلفونى وحدى فى مكانى ، وتواثبوا على هذه الكتب أو الكنز

الثمين يجيلون النظر والأيدى فيه ، وهم لا يصدقون عيونهم . . . . وخلفتهم بعد أن شرحت لهم ما غمض عليهم .

لجنة الألعاب

وفى اليوم التالى قصدت متجر « الكادى فى » وصعدت إلى طابق الألعاب ، ودرت فيه دورة أقلب النظر فى مشتملاته من أدوات اللعب والرياضة . فقر رأيى على شراء « بنج بونج » ، فطلبت مقابلة مدير القسم وقدمت له نفسى ، وأعربت عن رغبة النادى فى شراء واحد مكتوب عليه كذا من الماركات . وأننا نطمع فى تخفيض شىء من ثمنه ، فنحن ضيوفكم ، وأعضاء النادى من الطلبة وليسوا من أرباب المال . فضحك قائلا : — « فى استطاعتى أن أخفض لكم ٥ ٪ من ثمنه ، ولن يفرق هذا كثيرا ، ولكننى لو اتصلت بالمدير العام ، فأنى واثق أنه سيقدم لكم خدمة أجل من ذلك . »

فقصدت المدير العام ، وقصصت عليه القصة فى ثوب فكاهى رقيق ، فقال :—

« اعرض على إقتراحاتك . . »

« البيع نسيئة ، وعلى أقساط شهرية . »

« لكم ذلك ، هل من خدمة أخرى أستطيع أن أقدمها لكم . . . »

على أن يبدأ القسط الأول من الشهر المقبل . »

« ولكم هذا أيضا . »

قلت : « لم ننته بعد . وعلى أن تبعثوا به الليلة إلى النادى وهذا عنوانا . »

وفى مساء اليوم نفسه شهدت اجتماع « لجنة الألعاب » فشهدت صورة مما حدث فى لجنة المكتبة وجاء « البنج بونج » ، فأشرقت الوجوه وأملت بعد تجهم ويأس . وتقرر أن يدفع اللاعب قرشا عن كل ساعة لتسديد الأقساط المطلوبة .

ونجحت هذه اللجنة نجاحا منقطع النظير . وتفننت فى مجموعة الألعاب التى أدخلتها ولها يرجع كثير من الفضل فى تردد الأعضاء على النادى فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار بل إن إيرادها أخذ فى النمو حتى أنها قررت فى النهاية رصد جزء منه لمساعدة النادى .

لجنة الرحلات

واقترحت على « لجنة الرحلات » قضاء يوم الأحـــد وليلته فى شبرى فالد Sprecwald وهى محلة قريبة من برلين ، لاتبعد عنها بالقطار كثيرا ، ولم يكن قد زارها أحد منهم من قبل . وجعلنا رسم الاشتراك فيها زهيدا ، فتقدم للرحلة سبعة عشر عضوا .

وأخذنا القطار فى الموعد المحدد بعد أن تفرقنا فى عرباته ، وقد تخلف اثنان عن السفر دون اعتذار . وتفقدت المشتركين ، ورجعت البصر فى وجوههم كرة بعد كرة ، فرأيت الجدّ مرتسما عليها ، فقلت فى نفسى ـ ماهذا . . . أمسافرون نحن إلى ميدان القتال . . أقسم لكم أيها الأخوة غير حانث فى يمينى أنى سأبدل هذه الروح العابسة بروح مرحة فى أقرب وقت ـ وأخذت أداعب من حوالىّ طامعا فى إدخال السرور إلى قلوبهم ، ولكنى عبثا حاولت . ولم يمض طويل وقت ـ حتى علمت أن شقاقا دب بين البعض منهم ، وأن المتخاصمين قد تركوا القطار من أول محطة وقف فيها القطار فلم آبه لهم ، ولم يكد يتحرك القطار حتى تحركت عقارب الخصام بين فريق آخر منهم فشب قتال بينهم استخدموا فيه أيديهم وأدواتهم ، وانتهى بنزول هذا الفريق فى المحطة الثانية . ووصلنا « شبرى فالد » ولم يبق معى منهم غير سبعة أفراد . فقصدنا فنادق القرية واحدا بعد الآخر فلم نجد بها محلا واحدا شاغرا للنوم . وعبثا حاولت إقناع أصحاب الفنادق أن

يفسحوا لنا مكانا عندهم . وعذرهم أنه كان يجب علينا إخطارهم قبل قدومنا بأسبوع . .

شبرى فالد

وانتشر خبر قدومنا فى هذه المحلة انتشار النار فى الهشيم ، فتوافدت النسوة والرجال والفتيات والغلمان للتفرج علينا ، وألسنتهم تلهج بعبارة واحدة يرددونها ويكررونها عشرات المرات : ـ « جاء العرب . . » « هل جاء العرب . . » « العرب قادمون . . » فلم أتمالك نفسى من الضحك على الرغم من الورطة التى وقعت فيها أنا وزملائى . وكلما سمعت فتى يجذب ملابس أبيه متسائلا : ـ « جاء العرب . . . . » أو فتاة تلفت وجه صديقها إليها وهى تسأله متلهفة : ـ « جاء العرب ؟ ؟ . . . . » كلما أبصرت هذا الاهتمام غرقت فى الضحك .

ثم تذكرت حرج موقفنا فتوسطت جماعة منهم شديدة الفضول وقلت : ـ « نحن العرب قد جئنا إليكم من صحراوات آسيا ومصر ، حيث يجد الضيف مأوى يأوى إليه إذا اشتد وهج الشمس ، أو جن الليل ، ونحن ضيوفكم . ولا نجد عندكم سقفا نبيت تحته نعم إن هذه المظاهرة العظيمة التى قابلتمونا بها لدليل على اهتمامكم بنا ، ولكنها للأسف تصغر وتتضاءل إذا كتب علينا البقاء الليلة فى العراء . . » .

فتقدم الحلقة فتى فى أوائل العقد الثالث . ورفع قبعته فى احترام وانحنى أمامنا وقال : ـ « معذرة ، هل قابلتم العمدة . . . »

قلت : ـ « لا » . .

قال : ـ « تفضلوا معى إلى الصيدلية القائمة قبالتنا ، وانتظرونى حتى أرتب لكم كل شىء . »

وسار وسرنا وراءه إلى الصيدلية فى موكب ظريف من الحمير والولدان يزاحموننا بمنا كبهم الكهول والعجائز بغية استراق نظرة من العرب الذين اقتحموا عليهم بلدتهم الهادئة دون سابق إنذار أو إخطار .

وصادف وجود العمدة وطبيب البلدة عند الصيدلى ، فأكرموا وفادتنا . وبذل العمدة جهدا كبيرا فى تهيئة محلات لنا فى أكبر فندق هناك . ووصلتنا دعوة من ثلاثتهم على شرب الشاى .

وبعد أن استرحنا فى غرفنا فترة من الزمن خرجنا للتريض فى هذا المصطاف والمتربع فوقعت أنظارنا على بساط من السندس يمتد على بعد النظر ، ومراع فسيحة تملأ العين ويقر بها الخاطر ، وعلى أشجار ، ونجوم مخضرة ، وأغصان حية ويابسة ، وغابات قديمة جمّلتها يد الأنسان ، وثمة مرتفعات ومنخفضات ، ونجود وأهواد ، فبينا تذكرك ببلاد الاسكندناف ، إذا هى تقرب اليك طبيعة الأراضى الواطئة . وهنا طيور قابعة ومحلقة ، وهناك عصافير مغردة وشادية ، ووراءنا موسيقى حالمة ناعمة ، وأمامنا موسيقى صاخبة عالية .

والماء يتفجر خلال البلدة وحواليها ، فشوارعها وأزقتها مسالكها المائية المستوية والملتوية . لا يعرف أهلها العربات ولا السيارات ، فوسائل النقل عندهم الزورق والقارب . طالما كان الماء صالحا للملاحة ، فالطفل هناك يذهب إلى المدرسة كما تذهب العروس مع ضيوفها إلى حفلة الزفاف راكبين الزورق والقارب ، وعلى الزورق ينقلون كذلك موتاهم من سئموا الحياة أو سئمتهم الحياة إلى مرقد الراحة الأبدى .

وإذا أقبل الشتاء ، واشتد البرد ، وثلجت السماء القرية ، وتجمدت الأنهار والنهيرات وفقدت الأرض معالمها ، استعان الناس بالقبقاب والعصا المكسوة بالحديد المدبب أطرافه خفافا متحذرين فى غدواتهم خشية الوقوع فى فخ من

هضاب الثلج الذى نصبته لهم الطبيعة ، لذلك اشتهر صغارهم وكبارهم بخفة الحركة ، ورشاقة القد من طول العمل فى التجديف طول فصول العام الحارة والمعتدلة ، ومزاولة المشى فى أواخر الخريف حتى أوائل العـــام ، فأولادهم ضامرون أشداء ، ليس بينهم بدين متهدل ، ولا بينهن بدينة كسول .

هذا هو طابع « شبرى فالد » وطابع آله ، وهذه هى طبيعة أرضه وطبيعة مائه ، سحر وفتنة ، وحسن وجمال . فتبارك الله المبدع المتعال ..

فى هذه البقعة من الأرض ، ولا أعرف بقعة غيرها ، كشفت فيها الطبيعة للإنسان عن زخرفها ، وهتكت أسرارها لخف الناس والطير إلى زفتها ، فوقفت فى مكانى مشدوها حتى نبهنى « طارق » أصغر العراقيين سنا ، بل وأصغر من وفدمن الشرق على الغرب للتزود من مناهل العلم .

« انظر يا أستاذ . . انظر ... البنات يجدفن ، والصبيان يجدفون ، ألا تسمح لنا بركوب قارب مثلهم ، إننى أحسن التجديف . »

متصنعا الجد أمام هذا الصغير وأمام زملائه : - « وهل من سبيل لنا غير ذلك ؟ » ، وكأن « طارقا » لم يفهمنى فقد ارتسمت على وجهه علامات الاستفهام والتعجب بعدد ماتتسع له جبهته .

واستأجرنا عددا من القوارب الخفيفة ، ووزعنا أنفسنا فيها ، وسارت القافلة تتبختر يمنة ويسرة ، ليس لقوة الريح أو الماء يد فى دفعها ، فثم نسيم رقيق ، وثم ماء ضحضاح ولكنها شقت طريقها باسم الله مجراها ومرساها ، وبلغت خميلة حسبناها على بعد نهاية الرحلة ، فإذا أشجارها الباسقة تقوم على الضفتين ، وقد تشابكت فروعها وتصالحت أغصانها بعد أن خلفت تحتها مسربا للقارين من مطاردهم ، ومهربا للعشاق يلتمسون فيه قبلة بعيدة عن عيون الناس .

ومررنا بقفاه منفردة ، ومقاه تكاد تكون متصلة بعضها ببعض لولا سد

رقيق من الخشب أو الصاج وقد غصت جميعها بالجلوس والوقوف ، والرائح والغادى حتى لا تكاد تجد مكانا لقدم . وقر قرار الجماعة أن نصعد إلى أحدها لتناول بعض المنعشات ، فالتفت إلىّ طالب عراقى كنت أعرف أنه يحمل معه «أكرديون» ، وطلبت إليه أن يشده إلى جيده وأن يلعب عليه شيئا من موسيقانا العربية ، وكان طيّعا فلم يتردد ، وضرب لحنا حماسيا غناه معه رفاقه ، ونحن نتنقل من مقهى إلى مقهى ، والناس تتجمع حوالينا يعجبون ويصخبون حتى انتهى بنا المطاف إلى مكان مريح فأخذنا مجلسنا هناك ، وأكلنا وشربنا وسمرنا وضافنا القوم وأضفناهم ، وراقص فتياتهم وتبادلوا وإياهم العناوين والصور ، وأخذت صور منفردة وصور مشتركة ، وسجلنا عدة مناظر للطبيعة ستبقى على مر الأيام راحة العين والقلب كلما طلبت العين أو طلب القلب راحة فى الحياة .

وعند الأصيل انكفأنا بموا كبنا الزاخر عائدين على ظهر الماء إلى غرفنا ، ولم يكد يستقر بنا المقام حتى جاءتنا دعوة من الطبيب والصيدلى ، فأمضينا عندهما بضع ساعات تتجاذب أطراف الحديث من هذا ومن ذاك . وسألناهما وقد انسلخ النهار عن ليله عن حظ السمار فى هذه البلدة . فقالا إن ببلدتهما دارا للسينما ، ومقصفا كبيرا للطعام والشراب والموسيقى والرقص ، وتركا لنا الخيار فى زيارة أحدهما ، فاخترنا المقصف . وانتقلنا جميعا إليه وقضينا ليلة ممتعة ، كنا فيها محط الأنظار وموضع الحفاوة والاكرام :

وعدنا فى الصباح إلى برلين ولا حديث لنا إلا هذه الرحلة الشيقة ، ونقل الرفاق خبرها إلى زملائهم ، فحركت فيهم روح الرياضة والسفر ، فظل عدد المشتركين منهم فى الرحلات التالية يزيد رحلة عن رحلة ، حتى امتدت رحلاتهم إلى خارج أوربا ، بل إلى شمال أفريقيا ، وكم كان يحز فى صدرى أننى كنت مقيدا لا أستطيع مصاحبتهم فى رحلاتهم وإن تعجب من شىء ، فاعجب من أثر

الرحلات على نفوس هذا الشباب فقد هذبت كثيرا من طبائعهم الفردية ، وطبعتهم بطابع الجماعة وجعلتهم يحسون بأنهم أسرة واحدة . . .

وصنعت شيئا مماثلا ببقية اللجان مما يطول سرده ، ثم طلبت عقد جمعية عمومية فوق العادة بعد مضى ثمانية أيام على انتخابى رئيسا ، وقدمت للأعضاء حسابا عن عملى فى هذه الأيام الثمانية ، وطلبت إليهم أن يشدوا أزرى ويولونى ثقتهم لأقوى على حمل هذا العبء الذى ألقوه على كاهلى ، فوكدوا ثقتهم بى وطاعتهم لى ، ووعدتهم بدورى أنى سأقدم لهم حسابا بين فترة وأخرى . كما سألتهم أن يناقشونى الحساب إذا أنا قصرت أو أحجمت عن تقديمه .

لجنة فلسطين

وفى الليلة التالية اجتمعت « لجنة الدفاع عن فلسطين فى أوربا » فافتتحت الجلسة بكلمة أبنت فيها للأعضاء عن هدف اللجنة والدور الهام الذى ستلعبه فى العلاقات الدولية واستنهضت هممهم لخدمة بلادنا المنكودة ، فنادونى « لبيك ! . . . لبيك ! . . . »

ثم جرى الانتخاب بيننا فانتخبت رئيسا للجنة وبعد معالجة جدول الأعمال تقرر ما يأتى : ـ

أولا ـ وضع بيان عن أهداف اللجنة ، يتلخص فى محاربة بريطانيا بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة .

ثانيا ـ إخطار الجهات المختصة فى برلين بنشاط اللجنة السياسى .

ثالثا ـ الاتصال بلجنتى الدفاع عن فلسطين والعراق .

رابعا ـ الاتصال بالعرب الموجودين خارج برلين فى أوربا ، وإخطارهم بنبأ تأليف لجنة الدفاع عن فلسطين فى أوربا ومركزها الرئيسى

برلين ، وأنها تقبل فى عضويتها كل لجنة عربية تتألف خارج ألمانيا لهذا الغرض .

خامسا ـ وضع قانون ولائحة داخلية .

سادسا ـ الأسراع بعمل المطبوعات اللازمة . الخ . الخ . . . . .

وشرعنا فى العمل جادين ، فلم يمض غـــير بضعة أيام حتى جاءتنا ردود من انجلترا ، وفرنسا ، وسويسرا وغيرهما من بلاد أوربا تفيد أن لجنتنا قد حفزت العرب هناك على تأليف لجان لهذا الغرض ، وطلبوا إلينا الاعتراف بها . وقد جاءت ردودهم بالبريد ، والجـــو والبرق مما دل على شدة اهتمامهم بفلسطين وتقديرهم لنا ، فقد اعترفوا بقانوننا ، وببرلين مركزا رئيسيا للعرب فى أوربا .

وصادف زيارة بعض رجالات العراق لبرلين فى ذلك الوقت فزاروا نادينا وأعجبوا به ، وتبرعوا له بشىء من المال تخلى عنه صندوق النادى لصندوق لجنة الدفاع ، مما ساعدنا كثيرا على أعمالنا الأولية .

ولاحظنا أن صحف المانيا مضربة عن نشر أنباء ثورة العرب فى فلسطين ضد الانجليز أو التعليق عليها فكان لابد من عمل شىء لألفات نظر الصحف إلى ذلك . فطلبنا من جهة الاختصاص التصريح لنا بعقد اجتماع فى إحدى الصالات الكبرى لتنوير الأذهان عن مسألة فلسطين ، فصرحت لنا بذلك . ودعوت اليه جميع الطلبة الشرقيين ، ورجال السياسة والصحافة . ووزعنا الموضـــوعات ، وأعددنا الخطب وراجعناها ، وتم عقد الاجتماع فى الموعد المضروب ، وأمه جمع كبير من المدعوين حتى كادت تضيق الصالة بهم على سعتها .

وبسطنا قضية فلسطين وثورة العرب أحسن بسط للرأى العام الألمانى وللجاليات الأجنبية ووزعنا نسخا من الخطب على رجال الصحافة وخيل إلينا أننا كسبنا الموقف ، وأن الصحافة الألمانية ستطلع علينا فى الصباح بوصف

الاجتماع، والتعليق عليه، ولكنها للأسف لم تشر إليه ولا إشارة بسيطة.

وسئلت من أعضاء النادى عن تعليل ذلك، فاتحلت لهم بعض العلل حتى لا أنت فى عضدهم، ولكنى لم أخف العلة الحقيقية عن أعضاء لجنة فلسطين، فقد صدرت أوامر الحكومة الألمانية إلى الصحافة بعدم الخوض فى مشاكل بريطانيا حرصا على رضائها. وأفهمتهم أن الطريق أمامنا غير معبد، وأن الشقة بعيدة، فلابد لنا من الصبر على كثير من المكاره، ومواصلة الجهاد فى غير يأس، وطلبت اليهم أن تواصل اللجنة انعقادها كل ليلة للتغلب على الصعاب التى أمامنا فأخذوا برأيى.

وقلبت الأمور على جوانبها، فرأيت أنه لابد لنا من إحراج الحكومة الألمانية حتى تخفف عنا ضغطها، وتأذن للصحف بمؤازرتنا. وعرضت الرأى على زملائى فقالوا لا بأس من تجربته. ووضعنا برنامجا لذلك، وشرعنا فى تنفيذه خطوة خطوة.

فكتبنا لمحطة الأذاعة نطلب إليها أن تسمح لنا بأذاعة بعض الحقائق عن فلسطين فجاءنا الرد بالرفض، ولكنه فى قالب اعتذار.

فألححنا على وزارة الدعاية والبوليس فى طلب التصريح لنا بعمل مظاهرة فى العاصمة من أجل فلسطين بملابسنا وأزيائنا العربية لنلفت إلينا أنظار العالم، فجاءنا الرد بتأجيل مظاهرتنا حتى نخطر بذلك... ووسطنا بعض رجالات الألمان ممن يعطفون على القضية العربية، فلم تفلح وساطتهم، وطرقنا أبوابا كثيرة لنحرك الحكومة الألمانية فلم تتحرك، فلم يبق أمامنا غير إلا التجاء للحزب الاشتراكى الوطنى فبعثنا اليه برسالة مطولة، شرحنا فيها موقف الحكومة منا ومن قضية فلسطين فما طلنا الحزب. وخفت أن يفت الفشل فى عزيمة اللجنة، فاقترحت عليهم أن نخصص ليلة فى الأسبوع فى نادينا للمحاضرة فى

شئون فلسطين ندعو اليها الصحافة الأجنبية والبارزين من الألمان . ونفذنا الاقتراح في نفس الأسبوع ، وحضر بين الضيوف مراسلان لجريدتين بريطانيتين معروفتين . فانتهزنا هـذه الفرصة وتحدثنا عن لجنتنا ، وعن اتصالاتها بكافة العرب في أوربا ، وتلونا رسائل واردة الينا من شعبة لندن وفرنسا ، وحملنا حملة شعواء على بريطانيا ، ونادينا بسقوطها وبالثورة الدائمة حتى تتخلص البلاد العربية من جرثومة الاستعمار البريطاني .

وفي نفس اليوم نقل المراسلان أنباء اجتماعنا الى صحيفتيهما ، وبالغا في الوصف وفي خطر لجنتنا ، واتهما الحكومة الألمانية بمساعدتها لنا . وعلقت الصحيفتان الانجليزيتان على كلام مراسليهما في برلين بما عن لها من خيال خصب فوصفت أنواع الأسلحة وعياراتها التي تتدفق من ألمانيا على عرب فلسطين ولم يفتهما ذكر المساعدات المالية التي تتلقاها لجنتنا وناديا من الحكومة النازية فاقترحتا ، لا أستغفر الله ، بل كتبا بلغة المتحقق أرقاما خيالية عن قيمة هذه المساعدات فأثارت هذه الكتابات ثائرة الشباب العربي ، وضاعفت الحماس في نفوسهم .

وفي اليوم الثالث زار المراسلان دار النادي في غيبتي وتركا بطاقتيهما طالبين مقابلة « الرئيس » في المساء أو في موعد آخر يحدده هو . فلم أعن بالرد عليهما ، فجاءا الينا في العشية ، وكان النادي يعج بالأعضاء والضيوف ، اللجان مشغولة بأعمالها ، والأعضاء يروحون ويجيئون يتسامرون ويتناقشون ، يلغطون ويهمسون . والأنوار تتلألأ في كل مكان . ولم يخل من ضوئها القوي غير غرفة صغيرة هي غرفة الرياسة ، حيث كنت أستعين على أعمالي الكتابية بنور المكتب وحده . وأعلن لي نبأ قدوم الزائرين ، فأشرت بأهمالها بعض الشيء ، وظلا نصف ساعة ينتظران السماح لهما بمقابلتي ، ثم اضطرا في النهاية لمعاودة السؤال ، فحولتهما إلى السكرتير ، بعد أن نصحته بعدم الافصاح بشيء عن أعمالنا

وأن يسترسل فى شرح مظالم العرب بكل الوسائل ، وكان فتى ذكيا لامع الذهن فعمل طبقا لتعليماتى . ولما لم يصلا معه إلى شىء طلبا إليه أن يرياني ، فاعتذر عنى بوفرة أعمالى ، فألحا عليه ، فتظاهر أمامهما بأنه سيحاول تدبير موعد لهما . وجاءنى فقمص علىّ مادار فقلت له دعهما يدخلان علىّ بعد ربع ساعة بالضبط على أن يتركهما وحدهما طول هذه الفترة .

وأخيرا سمح لهما بمقابلتى ، وقد أنهك الانتظار أعصابهما فتلطفت فى الاعتذار لهما ، وطلبت لهما بعض المنعشات . وتحدثت معهما بالألمانية متعمدا ، فحاولا نقل الحديث إلى الانجليزية ، فقلت الانجليزية لغتكم والعربية لغتنا فلنتركهما الآن وراءنا ونتحدث بلغة البلاد التى نعيش فيها ، وهى لغة مشتركة بيننا ولم أترك لهما فرصة للسؤال ، بل أخذت أمطرهما بالأسئلة عن الحالة الدولية والحالة فى ألمانيا وفى انجلترا إلى غير ذلك من الاسئلة العامة ، ولما رأيت علامات الضجر مرسومة على وجهيهما نظرت فى ساعتى وقلت لهما : « أيها السيدان .. لقد تشرفت كثيرا بمعرفتكما ، وأحب أن أراكما قريبا . معذرة إذا قطعنا حديثنا الشيق ، فأنى على موعد الآن » ونهضت واقفا ، فوقفا ، وقد بلغ الغيظ منهما كل مبلغ ، وقالا فلنحدد موعدا للمقابلة الآن . ان صحيفتينا قد أبرقتا إلينا بالاتصال بك . لعلك قد قرأت ما كتبناه أمس أول »

مبتسما : « لكما ذلك . ليكن غدا أو بعد غد . أما ما كتبتماه ، فلى معكما كلام بشأنه . »

ـ « غدا فى مثل هذا الوقت ؟ »

ـ « لكما ذلك . »

وفى غد سمحت لهما بالدخول علىّ فى الحال ، ولكنى لم أتلطف معهما تلطفى أمس ، وبادرتهما فى الحال عم يريدان الاستفسار عنه . .

سألانى عن النادى وتاريخ نشأته وجنسيات أعضائه وعددهم، وعن مهمته، وكثيرا ما كانوا يخلطون بين النادى ولجانه المختلفة. وبعد أن أجبتهم على أسئلتهم قلت: «فيم تضييع الوقت لقد كان فى مكنتكما الحصول على هذه البيانات من أى عضو عندنا.»

هل عندك ملحوظة على ما كتبناه...»

ـ «لا، وأنتما أحرار فيما تكتبانه» وترددت قليلا ثم قلت: ـ «ربما كان لكما حق علىّ بحكم الزمالة نصيحة أسديها إليكما، لا تعتمدا كثيرا ـ إذا شئتما خدمة الحقيقة ـ على المخيلة فأنها كاذبة خداعة.. اسعيا فى الحقيقة مجردة عن كل تزويق أو خيال، لقد عقدنا العزم على مقاتلتكم فى كل مكان، فى السر والعلن، وبكل سلاح نظفر به واعلما أن أدوات القتال ليست قاصرة على الحديد والنار. بل إن هناك أسلحة أخرى أشد فتكا وتدميرا، سنفضح سياستكم الغاشمة فى الشرق والغرب، ونؤلب عليكم الشعوب التى خدعت قرونا طويلة فى شرفكم، وسنشعل الحماس فى شبابنا والطبقات الدنيا، وسنعلنها حربا دائمة عليكم حتى يخلو آخر جندى من جنودكم عن بلادنا، لسنا صناع لألمانيا ولا لغيرها من الدول، ولكننا خلف لسلف كان أول من حمل مشعل الحضارة للعالم وهو يتخبط فى دياجير الجهالة والبربرية. إلى الملتقى ولكن فى ميدان من ميادين الجهاد.»

وحمل علينا المراسلان حملة شعواء فى رسائلهما، واتهما النادى العربى بأنه صنيعة الألمان، وعرضا بى كثيرا، وأثارا على حكومات بريطانيا وألمانيا ومصر وبلاد العرب، واتهما ألمانيا بأنها تأوى ثوريا خطرا مغامرا، إذا طال مقامه فسيعكر صفو العلاقات الدولية، وحضا حكومات العرب على انقاذ أبنائهم من براثنى إلى آخر ماجاء فى كتابتهما. ولم يزعجنى شىء مما قالوا، بل على العكس من

ذلك هلات له وكبرت ، فأنا جندى محترف فى جيش الحرية ، وليس أسعد عند الجندى من خوض معركة يؤمن بهدفها وغايتها .

أصبح العناية الالهية

وبينا أنا أفكر فى عقبة المال والتغلب عليها لمواصلة الكفاح زارنى رجل سورى مهدم تبدو عليه أمارات التقدم فى السن ، وسلم فى احترام وقدم لى نفسه وقد ترقرقت عيناه بالدموع قائلا :-

« أنا عربى مسيحى من سوريا عشت فى ألمانيا سنين طويلة ، وجمعت منها ثروة تعد بالملايين ، وليس لى وريث ولا فى استطاعتى نقل ثروتى إلى بلادنا . وقد راعتنى أعمالك من أجل العرب والعروبة ، وبهرنى كفاحك ضد مظالم بريطانيا فى فلسطين . وعز علىّ وأنا - إذا لم يسؤك هذا التعبير - أعرق منك فى العروبة أن لا أساهم بنصيب فى هذه الحرب التى أججت نيرانها . فمالى تحت أمرك تصرف فيه جميعه كما تحب ، لأنى لا أملك شيئا غيره ، فحتى صحتى لا تسمح لى بالخدمة فى جيش الحرية ، وأيامى فى الحياة أصبحت معدودة . »

هذه بلا شك أصبع العناية الأهية ، وهذه الرجل رسول السماء ، وقد أنزلت علينا خيرها فى الوقت المناسب فهل كان ينقصنا غير المال . . .

« مرحبا بمقدمك . . وشكرا لك على أريحيتك . . وبورك فيك وفى رجولتك لقد بالغت فى الثناء علىّ بما شاء أدبك الجم ، فقدرت دورى الذى ألعبه بين أشبال العرب بأكثر مما أستحق : إن كل مهمتى التى كرست لها نفسى بينهم هى تقوية الروح المعنوية فيهم ، وبناء أسرة واحدة منهم متماسكة البنيان ، وتدريبهم على أساليب القتال المشروعة وغير المشروعة . وصحيح أن المال يهوننا ، ولكنى ولا أكذبك أخشى تدفقه علينا ، بما وصفت ونحن فى بداية المعركة ، أن يفسد

علىّ مدرستى فهود الشباب لايزال غضا ، وربما أغراهم المال أو أضعف من قوة اعتمادهم على أنفسهم . . . »

مقاطعا : ـ « أترفض مساهمتى . . . أتحول دونى ودون خدمة بلادى . . . .

مقاطعا بدورى : ـ « لا ، لا ، ولكن أمهلنى قليلا لأتدبر كيف ننظم معا هذه المساعدات . »

« لك أن تفكر فى ذلك حتى عصر غد ـ أنا فى انتظار مقدمك إلى دارى لنشرب معا فنجانا من الشاى ونتمم حديثنا . » وناولنى بطاقة بها اسمه وعنوانه »

أصبع القدر

شيعت الرجل إلى السلم فى تجلة واحترام وعدت مشدوها من هذه اللقيا إلى مكتبى ، فلم أطق الجلوس إليه ، فأخذت أذرع أرض الغرفة مفكراً فى أحسن الوسائل لاستغلال هذا الكنز الثمين . وأخيرا عزّ البقاء طويلا بين أربعة جدران فغادرت النادى وانطلقت فى الطرقات على غير هدى ، فقطعت « شارع كورفر ستنشتراسا » حتى كنيسة جدشتنر ثم عرجت على اليمين حتى بلغت الرصيف الأيمن فخيل إلىّ أنى أسمع ورائى صوتا يناديني ، فالتفت نحو الصوت فأبصرت سيدة مقبلة علىّ وهى تبتسم ، فوقفت فى مكانى ، فلما بلغتنى قالت : ـ

« لعلى لم أخطىء . . فلان الفلانى . . . » ونطقت باسمى صحيحا وكاملا . »

قلت متعجبا : ـ « نعم أنا هو . هل من خدمة أقدمها للسيدة . . . » وتأملتها فإذا أنا أمام سيدة من بنى اسرائيل على قدر ليس بالقليل من الجمال والجاذبية يخطىء الطبيب تقدير عمرها لشدة عنايتها بنفسها . فله أن يؤكد أنها فى الأربعين وله أن يقسم على أنها لم تتجاوز الثلاثين .

قالت : ـ « كنت عند ابنة أخى الموظفة فى صحيفة روندشاو Rundshau

لأمر من الأمور . فرأيتك هناك تعلن عن إعطاء دروس عربية ، ولما كنت أرغب فى تعلم لغتكم ، لأنى عازمة على الهجرة إلى الشرق وربما كانت مصر وجهتى ولم أكن أعرف أحدا فى برلين يعطى دروسا خصوصية فى العربية - سررت لهذه الصدفة الطيبة ، وأردت محادثتك فى هذا الشأن ، ولكنى بعد أن انتهيت من الحديث مع قريبتى وجدتك قد انصرفت لحال سبيلك - وفقدت عدد الصحيفة الذى فيه إعلانك وحالت مشكلات الحياة اليومية دون السؤال عنك فى إدارة الجريدة .»

صحيح كنت فى إدارة هذه الجريدة منذ خمسة عشر يوما ولكنى لم أنتبه إلى شىء . صدقت ، فأن عدم الاكتراث يكاد يكون الصفة التى أتميز بها فى أيامى الأخيرة .

- « وبماذا تأمرين . . . »

- « أريد أن أتردد عليك مرتين فى الأسبوع لتعلم اللغة ، وأود أن أعرف الوقت الذى يلائمك »

نظرت فى كناشتى واتفقنا على الموعد . وكان الدرس الأول يبدأ فى صبيحة اليوم التالى .

وفى الصباح نهضت مبكرا لأنسخ بعض الأعمال على الآلة الكاتبة قبل مقدم التلميذة الجديدة . وبينا أنا مستغرق فى عملى دق الباب ودخلت فراو « زيلج »

« صباح الخير - هل أزعجتك . . . »

« لاشىء ، إن وقتى ضيق ، وأحب أن أستغله بقدر الطاقة . هذه قصة من تأليفى ، وأريد أن أنتهى من نسخها لتقديمها إلى أحد الناشرين . تفضلى بالجلوس فسنبدأ العمل فى الحال . »

سارت تتبختر فى مشيتها حتى بلغت المكتب وقالت : ـ « أكاتب أنت ، أنا كاتبة كذلك ، ولو أنه لا يوجد لى نتاج فى السوق ، وأنا أحب الأدب والأدباء » ضاحكة « كم أكون سعيدة لو أتحت لى فرصة مساعدتك فى نسخ كتابك فأنا أسرع منك بكثير فى الكتابة على الآلة الكاتبة . »

« ربما اتفقنا على ذلك بعد ، فلنبدأ عملنا . »

وانصرفت بعد الدرس ، بعد أن كررت عرضها .

وفى عصر اليوم نفسه أخذت طريق إلى المليونير السورى ، ولم أجد مشقة فى التعرف على مسكنه ، لقد كان يسكن فى أحدى عماراته الضخمة القائمة فى أحد الشوارع المعروفة .

ويتألف مسكنه من ثلاث غرف وصالة مؤثث بأثاث غاية فى البساطة ، كل ما يلفت النظر فيه خزانة ضخمة فى غرفة المكتب التى لا تحتوى إلا على مكتب عتيق ولكنه نظيف ومقعدين . وليس بالمسكن سـوى خادم تقوم على خدمته .

وبعد أن شربنا الشاى أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فى شئون النادى العربى واتفقت معه بعد أخذ ورد على ألا يقدم لخزانة النادى شيئا من النقود ، وحسبنا منه أن يقوم بنفسه بدفع النفقات اللازمة لأصحابها وعليه أن يقدم لنا إيصالات بما يدفعه ، وبذلك نتجنب خلق مشكلات للنادى بوجود مال فى خزانته ، وندفع الهوى والمطامع عن نفوس أعضائه .

وفى المساء أخطرت مجلس الأدارة بأن فلانا السورى المليونير عرض على النادى مساعدته على الوجه الآتى ، وذلك بأن يقوم بتسديد ما يتعذر على النادى تسديده من النفقات فى نطاق المعقول .

وخطر لى خاطر أن أبعث ببرقيات مطولة إلى ملوك العالم ورؤسا

حكوماته والصحف المشهورة أشرح فيها قضية فلسطين وأفضح سياسة بريطانيا حيالها . فعرضت اقتراحا بذلك على مجلس إدارة لجنة الدفاع عن فلسطين فأقرني أعضاؤها على الاقتراح ، وكلفوني بكتابته وتنفيذه .

وفي غضون يومين كنت قد أنجزت تسويد البرقيات المختلفة . ودخلت عليّ فراو زيلج وأنا أنسخ صورها على الآلة الكاتبة فسلمت ضاحكة وهي تقول : ـ « هلا أكتب لك شيئا ، فهذا مما يسرني ، إني محبة للشرق ، وأود أن أعلم عنه شيئا . » وقالت وهي تتقدم إلى الآلة الكاتبة : ـ « الى أين وصلت في قصتك . . . وأية مشكلة في الحياة تعالج . . . »

« لا ، لا ، أشكرك ، إنما أكتب شيئا آخر . » وزحزحت الماكينة قليلا من مكانها وأفسحت للسيدة مكانا على مقربة مني ، فألقت نظرة خاطفة على الأوراق ، ولا أدري إذا كانت عرفت شيئا من محتوياتها . . . وعند الانتهاء من الدرس قدمت لي هدية كتابا جديدا في الأدب ، وتلطفت في دعوتي للذهاب معها في المساء إلى « التياترو » لشهود رواية جديدة ، فقد أهدتها صديقة لها تذكرتين لشهود هذه الرواية فاحتفظت بأحداها لي . واعتذرت وألحت في الرجاء ، وأخيرا قبلت دعوتها .

وشهدنا الرواية معا ، وعند مغادرة الملهى اقترحت علي أن نقضي بعض الوقت في أحد المطاعم لنتناول طعام العشاء ومناقشة الرواية ونقد التمثيل . فلم أستطع الرفض طامعا في رديدها في الحال . واختارت محلا فخما عامرا بعلية القوم ، وأخذنا مجلسنا في زاوية ، خيل إليّ أنه محجوز لنا ، وأكلنا وشربنا ، وناقشنا المسرحية فكانت لها آراء قيمة يعتد بها في التأليف والتمثيل والإخراج ، ولما هممت بدفع الحساب اعتذرت في لطف بأني ضيفها الليلة ، ولا أدري كيف دفعته . وأردت

تشييعها إلى دارها فاعتذرت وألقت بنفسها فى أول سيارة مرت بنا وهنا نترك فراو زيلج على أن نعود إليها فى فصل آخر .

وأخيرا اكتب لنا النجاح

كتبت عشرات البرقيات المطلوبة بلهجة شديدة ومؤثرة ، وبصيغ مختلفة ، ومررت بالسورى المليونير واصطحبته إلى مكتب البرق وبعثنا بها إلى أصاحبها وكان بينها برقية لهتلر تستغرق نهرين من أنهار الصحف ، وكانت عبارتها تنم عن الصلابة والأنفة ، فلم أداهنه ، ولكنى حذرته من عواقب مأساة فلسطين وناشدته الوفاء للمثل الطيبة . وذكرته بأقواله ، وموقف بريطانيا حيال بلاده ونبهته إلى حكم التاريخ القاسى على الحكم النازى يوم لا يعرف دفاعا عن نفسه ، فارتعدت أطراف عامل البرق وهو يقرأ البرقية ونصحنا أن نلطف فى لهجتها فرفضنا محتجين ، وقررنا نحن متضامنين تحمل مسئولية كل حرف فيها . وبعد ثلاث ساعات بالضبط طلبت مستشارية هتلر أن أحضر إليها فى المساء لمقابلة الفورر ، ولم يكد ينتشر الخبر فى النادى حتى ثارت ثائرة الأعضاء وتعذر كبح جماحهم وهددوا بالثأر لى ووكدوا الأيمان فيما بينهم على أن يفنوا إلى آخر فتى منهم إذا أصابنى الفورر بضر . فهونت عليهم الأمر . وفى المساء اصطحبنى ثلاثة منهم إلى دار المستشارية وانتظروا عودتى على بضع خطوات منها . وهناك لقينى إيرش المستشار الأول ، واعتذر لى عن الفورر لأنه اضطر إلى مغادرة برلين الساعة على متن الجو لأمر هام وانه مكلف بأبلاغى ، أن الفورر يعد العرب وعد رجل شريف أن يدافع عن قضية فلسطين فى كل وقت وأن لا يترك مناسبة لا يرفع فيها صوت ألمانيا بالدفاع عن العرب .

ونقلت هذا الحديث إلى أعضاء النادى وناقشوه فيما بينهم . وفرح أناس

وخشى آخرون أن يكون فى الأمر حيلة للبطش بنا . وفى صباح اليوم التالى صدرت جميع صحف ألمانيا من أقصاها إلى أقصاها وقد خصصت صفحاتها الأولى لقضية فلسطين ومواجهة الاستعمار البريطانى ، بل كتب بعضها صفحتين فى هذا الموضوع . وظهرت فى الصحف صورة تمثل تعاسة عرب فلسطين ، ورغد اليهود هناك .

وإلى القارىء عينة مما كتبته الصحف . .

نشرت جريدة الساعة ٨ المسائية بعددها الصادر فى ١٥ نوفمبر عام ٣٨ تحت عنوان « فلسطين فضيحة فى جبين المدنية » ما يلى .

« نحن على أتم الاستعداد لاستئناف الحديث معك أيها الانجليزى عن طبيعة الانسان كما تراها أنت فى لندن وكما نفهمها نحن فى برلين ولن نحتاج فى ذلك إلى لمس مأساة شعب تتفتت له الأكباد ، تلك المأساة التى تمثل يوما بعد يوم وعاما بعد عام فى فلسطين ، شعب له حقوق على أرضه التى عاش عليها ، يطارد من وطنه بالديناميت والمدافع الرشاشة والدبابات وكل يوم تزداد وسائل القمع التى يستخدمها الانجليز ضده وحشية على وحشية فإذا علمنا أنهم من جراء ست طلقات طائشة دمروا فى ارتا أربعة بيوت ، وفى طيرة ستة بيوت وفى كل من هارتيه وسيلت بيتين ، وفى كل من نابلس وزيتا بيتا ، إذا علمت أنهم دمروا ما مجموعه ١٦ بيتا مقابل ست طلقات طائشة ، علمنا تماما كيف تفهم بريطانيا فى لغتها كلمة « الانسانية » .

أن الدوائر البعيدة التى صمتت حتى اليوم عن هذه الفضيحة ، فضيحة المدنية بحق فى القرن العشرين ، لأنها لا تريد أن تتدخل فى شئون بلد أجنبى لم يبق لها أحبت أو كرهت ، الا الخروج من تحفظها . .

لقد قال ايدن وزير الخارجية البريطانية سابقا فى إحدى المرات إن نظام

الحكم الدمقراطى جزء لا يتجزأ من حياة الانجليز ، فالواحد فى انجلترا ليس فى حاجه لأثبات ولائه لهذا النظام الى المظاهرات الشعبية أو ارتداء ملابس خاصة . (ويعنى بذلك الدول ذات النظام الجماعى) . ولكن دون قيام الثورات وإطلاق النار عليها لا يمكن فى صراحة للحكومة البريطانية الدمقراطية التى تحدث عنها مستر إيدن حفظ النظام فى بلادها .

وقال مستر بريان وزير خارجية أمريكا - لقد دال البريطانيون منذ زمن طويل مع أهالى الجامج والهندوس على عجزهم . وباسم العدالة وبالدهاء يستخدمون القوة الغاشمة ضد شعب أعزل » واليوم يدلل البريطانيون على أن هذه العبارة لم تفقد جدتها فان الآلام القاسية التى أنزلتها سياستها الى الآن بفلسطين لا تعبر عن دهاء أو عدالة ، بل تعبر عن القوة الغاشمة .

وخير لبريطانيا لو اهتمت بعض الشىء بفضيحتها أكثر من اهتمامها بتقتيل شعب باسم « الانسانية » الكاذبة ، هو فى حاجة الى عدالة وعطف إنسانى أكثر مما يفهم هؤلاء الانجليز تحت هذه الكلمة . »

ونشرت الجريدة المذكورة فى نفس العدد المقطوعات التالية تحت عنوان

قليل من كثير

فى أحدى مدن السيخ المقدسة

١ - حدث فى يوم ١٢ أبريل من عام ١٩٢٠ أن أثقل بعضهم على سيدتين انجليزيتين فى الطريق العام دون أن يلحقا بهما ضررا ، فثأر لهما الجنرال دير البريطانى فى اليوم التالى بقتل ٥٠٠ هندى واصابة ١٫٥٠٠ وا كتتبت إحدى الصحف البريطانية للجنرال بسبب مسلكة الباسل بمبلغ ١٤٫٠٠٠ جنيه استرلينى

٢ ـ رد البريطانيون على إصابة أحد ضباطهم فى فلسطين بجرح غير مميت بتدمير قرية بأكملها وفرض غرامة على الأهالى الفقراء ، وإطلاق الرصاص على ثلاثة من العرب يظن أنهم المعتدون ، وألقى القبض على مائتى عربى .

وفى فلسطين كذلك

٣ ـ قتل العرب فى كفاحهم المستميت من أجل إنقاذ وطنهم الذى يطمع البريطانيون فى سلبه منهم بالقوة ٤٢ انجليزيا فى شهر يوليو واغسطس وسبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٣٨ ، فقتل الانجليز منهم فى هذه الفترة من الزمن تأديبا لهم ١٠٨٩ شخصا ، ونسفوا ٧٥ بيتا فى الهواء ، فكان نصيب كل قتيل بريطانى ٢٦ عربيا ونسف بيتين

فى حـــرب البوير

٤ ـ توفى أثناء حرب البوير ٢٦٠٠٠ امرأة وطفل بسبب الحرمان وألوان التعذيب المنقطعة النظير التى صبت على رءوسهم وأقام البوير تمثالا تذكاريا لهذه الفضيحة فى جبين المدينة ، ووصف تشرشل أعمال السياسة البريطانية بأنها أعمال بربرية وجنونية .

فى الهنـــد

٥ ـ قضت انجلترا بسبب وقوع حادث فى الهند بأن يسير ١٥٠ هنديا من موطنهم الأصلى زاحفين على بطونهم على طول الطريق بدل سيرهم على الأقدام وضرب الفتيات بعد تجريدهن من ملابسهن ، وجلد مائتى هندى ، وشد زعيم هندى إلى فم المدفع وإطلاق النار عليه .

* * *

« واتصل بعضنا ببعض بالتليفون فى الصباح الباكر لافتى النظر إلى هذه الحالة ومهنئين بعضنا البعض بهذه النتيجة السارة ، والأولى من نوعها فى ألمانيا .

ووالت الصحف والمجلات حملاتها القاسية على بريطانيا ووصفتها بأنها حامية اليهود وسالبة العرب حقوقهم الطبيعية . فشجع هذا النصر شبابنا على العمل واستماتوا فى ميدان الكفاح .

ودبت الحياة كذلك فى اللجان الفرعية فى لندن وباريس وغيرها فكتبت لنا تطلب عقد مؤتمر من جميع لجان أوربا لبحث مشكلة فلسين ، واقترحت كل واحدة منها أن يكون المؤتمر فى بلدها .

وجاءتنا ردود من لجان الدفاع فى البلاد العربية تؤيدنا فى كفاحنا ، ومدتنا بمطبوعاتها . ورأيت الوقت مناسبا للقيام بمظاهرة وسط برلين بملابسنا العربية المختلفة فجددت الطلب عند محافظة برلين .

وبعد يوم طلبت على عجل فى وزارة الخارجية الألمانية عند مدير القسم الشرقى الهرفون هنتج . وكان فى انتظارى على أحر من الجمر ، فلما وقع نظره علىّ دق بيده على المكتب فى حالة عصبية وصرخ قائلا : - « متى يفهم هؤلاء الناس أن ألمانيا ليست بلدا من الدرجة الثانية وأنها ندلهم ، أنهم للأسف لا يريدون أن يفهموا ذلك » ثم تمالك نفسه واعتذر عن صراخه ورحب بى وأجلسنى على مقربة منه وقدم لى سيجارا فخما - « معذرة لقد جاء السفير البريطانى صباح اليوم قبل أن يتناول طعام الأفطار وطلب إلى إخراجك من البلاد لأن وجودك فى ألمانيا سيعكر صفو العلاقات بين البلدين وأنه قد طلب ذلك إلى سفيركم فى برلين فاعتذر بأنه لاسلطان له عليك ، طالما أن الدولة المصرية قد جردتك من جنسيتك . آه . . متى يفهمون . . حقا أنهم بلداء ، بطيئو التفكير ، متحجرفون . . دعنا منهم الآن . . أنت . . آسف لعدم معرفتك من قبل ، كم مضى عليك فى بلادنا . . . »

« أوشكت على العام الثامن . . »

« وأين كانت وزارة دعايتنا نائمة فى كل هذه السنوات . . . »

فلم أجب بحرف واحد

فاستأنف فون هنتج الحديث قال : ـ « لك من الآن أن تصنع ماتشاء ، ولا تخش شيئا . »

« أشكر لك هذا العطف على قضيتنا العادلة . وأرجو أن يصلنا قريبا التصريح الخاص بعمل مظاهرة فى حاضرة بلادكم . »

ابتسم الرجل ، وقال : ـ « انها فكرة جهنمية ، سيكون لها أثر كبير لو تمت . تصور منظركم وأنتم تسيرون بملابسكم البراقة الفضفاضة فى شوارع برلين تهتفون بلغتكم وتوزعون منشورات بلغتنا وقد تجمع النساء والرجال عليكم من ألمان وأجانب يختلسون النظرات ، ورجال السينما ومصورو الصحف يلتقطون لكم صورا ، تصور هذا وغيره ، والمراسلون الأجانب ينقلون أنباءكم إلى الخارج فأنكم ولاشك ستقيمون العالم وتقعدونه ، وستعرضون علاقاتنا مع الخارج إلى الخطر أمهلونى أياما حتى أتدبر الأمر من جميع نواحيه ـ هى فكرة بلا شك رائعة . كيف اهتديت إليها . . . »

« الحاجة أم الاختراع ياصاحب السعادة . أرجو أن لا يطول انتظارنا ، وأن لا يخيب رجاؤنا فيكم كما خاب فى انجلترا . »

« والآن أتسمح بشرب فنجان من القهوة معى إن لدىّ وقتا لك . ألكم مطالب أخرى . . . »

« نعتزم عقد مؤتمر قريب فى برلين من شعب لجنتنا فى أوربا » ، وقدمت له كتابا فى مظروف مطبوع عليه « لجنة الدفاع العليا فى أوربا عن فلسطين . المركز الرئيسى برلين . » كنا اعتزمنا إرساله إلى جهات الاختصاص .

فوقف الرجل عند العنوان قليلا قبل أن يفض المظروف ثم سألني « أترسلون هذه المظاريف إلى الخارج . »

« نعم »

« أليس من الحكمة عدم كتابة شيء من هذا على المظروف . »

« لانرى هذا الرأى . »

« نحن لانعارض فى أن يكون المركز الرئيسى فى برلين ، ولكننا ربما عارضنا فى كتابة ذلك على المظروف . فالعلاقات الدولية . . . . »

وهنا قاطعته قائلا : « إذا شئت نقلنا المركز الرئيسى للجنتنا إلى لندن ، لندن نفسها ، حتى لانعرّض الدولة الألمانية لغضب بريطانيا . »

« ماذا تقول . . . انما هو مجرد اقتراح لمصلحة كلينا . ونحن مستعدون لتعويضكم عن هذه الخسارة . »

« أية خسارة . . . خسارة بضع مئات من (الظروف) . لا ، ياسيدى الوزير ، نحن لانرى فى ذلك عملا مشروعا فأذا أردتم أن تجاملوا بريطانيا على حسابنا ، فسنعرف كيف نغزو بريطانيا فى عقر دارها . »

« لاتصنعوا شيئا من ذلك ، لكم أن تستخدموا مطبوعاتكم كما تشاءون . »

وفض الخطاب وتلاه وتفهمه حرفا حرفا ثم طلب معلومات عن مغزى المؤتمر وعما سيدور فيه . ورجانى أن أمهله كذلك بضعة أيام قبل البت برأى حيال المؤتمر

وخلفت فون هنتج بعد أن وعد ببذل كل مساعدة لنا ممكنة ، وشغلت مع نفسى بتحليل موقف الألمان حيال نادينا ونسيت تهديدات السفير البريطانى وما تعتزمه بريطانيا نحوى ، ولو تدبرت ذلك قليلا ، لتغيرّ سير حياتى إلى الأبد.

والتقيت بمحض الصدفة فى أحد مكاتب البريد بصديق قديم لى من أهالى الاسكندرية وقضينا معا يومين وقف فيهما على حقيقة حالى فعزّ عليه ما أنا فيه من متاعب

وآلام . فوعد أن يثير مسألتى للرأى العام المصرى ، ولو كلفه ذلك غاليا وقال وهو يهز يدى مودعا . سنلتقى قريبا فى الثغر الاسكندرى فتشجع ولا تقنط .

قلت والدمع يطفر من عينى : « سأكون عند ظنك بى » سلم على العجوز وقل لها ولدك بخير » . وانطلق القطار بصاحبى فخارت قواى .

كل يوم أستقبل أناسا وأشيع آخرين ، كأنه كتب علىّ أنا الحبيس أن أشهد الناس أحرارا ينطلقون حيث يشاءون ، وأن أشاطرهم أنا الحزين أفراحهم ومسراتهم وأن أدعو الله لهم أن يردغربتهم أنا الغريب . وأن أروح عن الزائرين والزائرات وأخدم المقيمين والمقيمات ، وليس بينهم من يمسح لى دمعة .

ما أغلظ أكبادنا نحن المصريين . . وما أضعف ذاكرتنا . . لا يكاد الواحد منا يعـــود إلى داره وآله وأصدقائه حتى ينسى آلام غيره ومتاعبه ، ويتناسى وعوده وعهوده . . هذا وعد من الوعود السابقة واللاحقة سيتبخر فى الجو بعد ساعات . ورجل كغيره من رجالنا المسرفين فى الوعود ، ليس لهم كلمة ولا عهد أما لهذا الليل آخر ...

وانتفضت فى مكانى من هذه الأحاسيس والخواطر وسرعان ما أنفضها عن نفسى فتتناثر ذرات فى الهواء فأرد على نفسى : فيم الشكوى ، وهل تليق إلا بالجبان الضعيف المتردد . . لقد بدلت أهلا بأهل ، وفى كل مكان يجد المكافح ميدانا لخدمة بلاده ، وربما كان مكانى فى ألمانيا أكبر فائدة لبلادنا من مكانى فى مصر ، فمن ذا الذى كان سيسد هذا الفراغ فى برلين ... إلى زملائك وأبنائك . . إلى النادى العربى . . إلى بقعة الجهاد المقدسة فى قلب أوربا الدنسة الشرهة . .

وأطلعت الشباب الموثوق به فى النادى على مادار بينى وبين الهرفون هنتج فقر رأيهم على أن الأمور تنذر بالتحرج ، وأن علينا أن نحتاط لها ، واقترحوا فيما

اقترحوه أن نوطد علاقتنا بمعتمد العراق فى برلين ليحمى ظهورنا ، طالما أن معتمد مصر لا يريد فى ذلك الوقت أن يعرف أو يسمع شيئا عنا . فدعونا الهيئة العراقية الدبلوماسية لزيارتنا ، وأقمنا لها حفلة شائقة ، خطب فيها الشباب عن محنة العرب الحاضرة وأمانيهم وآمالهم ، واستعرضوا أعمال النادى فى الفترة الأخيرة . وبعد الانتهاء من الخطب وشرب الشاى دارنا بزوارنا دورة فى غرف النادى ، فأثنوا على همتنا ، وأبدوا إعجابهم بالشباب ، وخصونى بكثير من عطفهم وقال لى السفير على مسمع منهم . « أن هذا الشباب بين يديك وديعة ستسأل عنها أمام الله وأمام ضميرك وأمام شعوبنا . فسر بهم فى الطريق الذى بدأته معهم حتى النهاية . والله يوفق العاملين . » وطلب إلىّ زيارته فى السفارة لنأخذ حريتنا فى الحديث بعيدا عن أعين المتطفلين .

وزرت الرجل فى دار السفارة ومحل سكنه ، فرأيت فيه رجلا سمح الوجه يتقد ذكاء وغيرة على بلاده . وتحدثنا طويلا فى مختلف الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وخرجنا من حديثنا متفاهمين تمام التفاهم على كل شىء . وعند ما هممت بالتسليم عليه أمسك يدى وظل متردداً فترة طويلة من الزمن كأنه يريد أن يقول شيئا ويخشى قوله ، أو كأنه يحاول صياغة ما يريد أن يقول فى عبارة لبقة استعصت عليه . ثم قال :-

« اجلس قليلا ، فلى معك كلمة أخرى . عندنا مترجم ألمانى للسفارة كثير التمارض أو لعله مريض بحق وأعمالنا متعطلة ، ونفكر فى استبداله بعربى ، وليس بين العرب الموجودين فى برلين من يصلح لهذا العمل سواك ، فماذا يمنعك من قبول عرضنا . سنأخذ من وقتك ساعة واحدة كل يوم . الأجر ليس بمغر كثيرا فنحن مقيدون من حكومتنا بمرتب قدره ٢٥٠ ماركا فى الشهر ، اعتبرها خدمة ، وعدا ذلك فستتمتع بحديثك كل يوم . »

« كم كنت أرحب بعرضك ، ولكن وجودى كموظف رسمى بينكم سيجر عليكم مشاكل دبلوماسية ما أحوجنا إلى تفاديها . »

فقال : — لقد فكرت فى ذلك ، وأنا على استعداد لتحمل المسئولية فى حالة قبولك . وإذا كنت ترى غير ذلك فقد بقى لى رجاء عندك . أن تعطى زوجى درسا فى الألمانية . إنها تجيد عدة لغات أجنبية وترفض أن تتلقى الألمانية فى أحد المعاهد لاشتغالها بأمور الدار . »

« أنا فى خدمتكما وهذا شرف عظيم لى . »

ودخل علينا وأنا أودع السفير ملحق السفارة التجارى فرجانى أن أصعد معه إلى مكتبه وهو شاب على خلق من خريجى الحقوق ومن أسرة عريقة فى العراق تولت مناصب خطيرة فى الجيش واشتركت فى عدة وزارات . وهناك عرض علىّ أن أعطيه كذلك درسا فى الألمانية لأن ظروفه لا تسمح له بالانتساب للمعهد الألمانى وأنه راغب فى الانتساب للجامعة فيما بعد للحصول على الدكتوراه فى الصحافة . فلبيت طلبه عن طيب خاطر .

وتوطدت علاقاتى بالسفير وبالملحق التجارى . وتوطدت علاقاتهما تبعا لذلك بالنادى فقدّما لنا من المساعدات الأدبية ما يعجز القلم عن حصره ، فكم من مرة أزالا الأشواك من طريقنا ، وكم من مرة حميا ظهورنا ضد هجمات الاستعمار البريطانى عند حكوماتنا . وإلى القارىء مثلا على أياديهما البيضاء على حركتنا .

هال تقدم النادى ثلاثة عراقيين من أعضائه شاردين عنه بحكم تكوين مزاجهم فقرروا محاربته فى داخله وخارجه ، فأخذوا يبثون دعايات كاذبة ، فلم تلق أذنا صاغية وكانت تنقل إلىّ فلا آبه لها ، بل على العكس من ذلك كان أصحاب هذه الدعايات محل عطفى ، ولما عجزوا عن إثارة غضبى أو بث روح الفرقة

بين الأعضاء اتفقوا فيما بينهم على تأليف هيئة مناهضة للنادى ، وشرعوا يفسدون علينا أعمالنا فكتبوا للشعب فى القارة أننا لا نمثل العرب وأنهم وحدهم الممثلون لهم ، فكتب الينا بعضها طالبين معالجة هذا الانقسام فى صفوفنا ، وأبرق هؤلاء الخوارج إلى السلطات الألمانية يستعدونها علينا ، فكنت أعالج كل هذا فى أناة وتؤدة ولما ضاقوا بنا ذرعا ولم يثمر عملهم غير الخيبة ، رأوا أن يهاجمونى فى دار النادى ، ويعتدون علىّ أمام زملائهم وعلمت أنهم تسلحوا لهذا الاعتداء فأصبح السكوت عليهم ضربا من الجبنة ، فضلا عما فيه من التشويه لحركتنا أو تشتيت الجهود ، فاتصلت بالسفير وشرحت له الموقف ، فاستدعى هؤلاء الخوارج فى حضرتى ، وطلب اليهم أن يحزموا أمتعتهم للعودة إلى بلادهم فى أربع وعشرين ساعة ، وأراهم كتابين أعدهما فى هذا الصدد أحدهما إلى الحكومة العراقية والآخر إلى البوليس الألمانى لترحيلهم فى الحال من البلاد ، وكان فى سلطته عمل ذلك بدون شك ، فهو المشرف على أعمال الطلبة من قبل الحكومة العراقية وهو المعتمد الدبلوماسى فى ألمانيا ، فلما رأوا منه هذا الحزم طلبوا وساطتى عنده ، وتشدد هو فى قراره ، وأخيرا رضى أن يبقوا على شريطة أن أن يعودوا إلى حظيرة إخوانهم ، وأن يوضعوا تحت المراقبة فترة من الزمن ، وبقوا ولكن نفوسهم لم تصف وأخذوا يعملون خفية ضدنا ، لقد كانوا مرضى القلوب والعقول فأهملناهم مع اتخاذ الحيطة من ناحيتهم .

المرأة الداهية

نعود بالقارىء إلى « فراو زيلج » حيث وقفنا به فى الفصل السابق عند قبولى دعوتها لزيارة المسرح وبعد يومين من هذه الدعوة طلبت إلىّ أن أزيد عدد ساعات الدّرس ساعة فأصبحت ثلاث ساعات فى الأسبوع ، ثم أخذت تلح علىّ

أن تنسخ لى بعض كتاباتى على الآلة الكاتبة فأذعنت لإلحاحها، وبذلك أصبحت تتردد علىّ معظم أيام الأسبوع للدرس أو الكتابة ، وبينما أنا غارق فى أعمال النادى ، منصرف عن كل ماحوالى بالمعركة المشبوبة بين عرب برلين وبين الانجليز كانت « فراو زيلج » تقدم لى من وقت لآخر صنوفا مختلفة من الهدايا، وألوانا من الكتب الجديدة والحافظات وتذاكر الملاهى وكنت أتقبلها شاكرا دون تفكير فيها . ثم عرضت علىّ أن أصحبها إلى رحلة خلوية فى يوم من أيام الآحاد فعجلت أن أرد طلبها وقد غمرتنى بكرمها . وجاءت إلى غرفتى مبكرة وكانت ترتدى ثوبا بسيطا من ثياب (الأسبور) الغالية الجميلة وقالت : ـ « هل سيدى مستعد . »

ومدت لى يدها مصافحة ، وسارت بى إلى الباب الخارجى . قلت ونحن نزول :ـ « إلى أين نحن سائرون . . . »

فأشارت إلى عربة فخمة أمام الدار وقالت : ـ « إلى حيث تسير السيارة بنا. » وجلست بجوار السائقة ، وانطلقت بنا العربة تنهب شوارع المدينة فقطعتها فى دقائق معدودات وبلغنا الطريق السلطانى فخففت السيدة من سرعتها قليلا، وكأن العربة لم تستجب إلى مشيئة صاحبتها ، فاندفعت فى سرعة ربما فاقت سرعتها السابقة ولكن فى رفق ولين ، وكان الطريق أملس بلله الطل ، فكانت السيارة كأنها تنزلج على طريق من الزيت ، وكانت الطبيعة تفرك عينيها من وخم النوم الطويل ، فكان نسيم الصباح ندّيا رطبا ، فأيقظ الطيور فى أوكارها وبث الحياة فى الأشجار فتمايلت أوراقها وصفقت أغصانها . وهبت علينا أنفاس النسيم فأخذت منه الرئات زادا لأيامها المقبلة وجددت الدماء دورتها ، وفتح مظهر الطبيعة وهى تكشف عن جمالها ثوب الليل الذى تدثرت فيه ـ شيئا فشيئا ، وقطعة قطعة ـ قلوبا غلّقها صدأ الهموم ، وجلت فتنتها نفوسا كاد يودى بها

الصبر الجميل ، فمال بعضنا على بعض يتغنّى بنعمهما ونعيمها . وكانت فراو زيلج مسرورة بفتان هذا الصباح فتركت زمام العربة للعربة تسير بنا فى الطريق الذى تختاره ، فبينا تندفع هذه السيارة الشرود الذلول إلى الأمام ، إذا هى تميل يسرة أو يمنة ، تارة تأخذ طريقها فى سبيل ضيق أوملتو ، وأخرى فى سبيل عريض الجنبات . ولم تحاول المرأة التفكير فيها بل كانت فى معالجتها لها رقيقة وديعة ، فلم تأخذها بعنف ولا سعت لتغيير وجهتها . وتمر علينا لافتات كتب عليها عدد الأميال ، وأخرى تبين الطريق للضال ، فلا نلتفت إليها ، وأخيرا وبعد ساعتين من الزمن قضيناها على هذه الحال وصلنا إلى غابة فسيحة وغدير من الماء لاأدرى منبعه ولا مصبه . فنزلنا من العربة لتريحها من عناء السير ، ولنعيش ساعة فى أحضان الطبيعة ـ وهناك أغرتنى فراو زيلج على كشف سرّ هذه الغابة بعد أن ناولتنى عصا أتكىء عليها من عصى الغابات ووعدت بانتظارى حيث كنا ، وحذرتنى أن أضل الطريق . فسرت وحدى متحذرا أتلفت يمنة ويسرة ، فرأيت الطبيعة عارية فى هذا المكان . أشجار ، وخمائل ، وحشائش ، وطيور ، وحيوانات آمنة وديعة ، ولم أجد فيها أثرا لانسان عدا بعض لافتات كتب عليها تحذير من التدخين اتقاء للحرائق . وعدت أدراجى فرأيت بساطا مفروشا ، وكراسى قائمة ، ووسائد مبثوثة ، ومائدة ممدودة وقد غطيت بمفرش نظيف جمّلته بدفتانة ، صُفّفت فوقه قوارير الشراب من منقش حرّيف ، وحلو من ، ومر مستساغ ، وفاكهة وحلوى فى أوانى يكاد بريقها يخطف الأبصار .

« وكيف يتوفر كل هذا المتاع فى الغابة ، وأين كان . . . ؟ ؟ »

« وكان مع غيره فى صندوق السيارة الخلفى . وهل يمكن التمتع بالخلوات إلاّ على مثل هذه الحال . . . لعلى لم أغفل فى عجلتى شيئا . . . »

وكنا لا نزال وقوفا فاقترحتُ أن نأخذ مجلسينا ، لأن بى ظمأ إلى بعض

المنعشات فقالت فى دلال : ـ « ليجلس السيد أولا » ضاحكة : « ثم ليأمر الحريم بالجلوس » . وانحنت أمامى فى أدب ثانية ركبتيها كما تفعل الصغيرات ، وأخذت مجلسها على وسادة عند قدمى مادّة ساقيها إلى الوراء .

« مرحى أيتها الجارية ، لقد أجدت التمثيل وأحسنت الأداء . »

وانقضى بعض الوقت فى الحديث ، وصاحت عصافير البطون ، فمدت سماطا أور بياجمع بين مالذ وطاب ، فأكلنا حتى التخمة ، ثم مدت يدها فى أحدى الحقائب ، وأخرجت منها « تورمسا » وصبت لى فنجانا من القهوة .

ثم ردت كل شىء إلى مكانه ، وقالت « ألا ينقص السيد شىء لأقوم على خدمته . . . »

قلت . « تهويمة القيلولة أو سنة من النوم بعد الطعام والشراب . . . »

قالت : « لك ذلك ، فقد فكرت فى ذلك أيضا . »

وسوت الوسائد بعضها بجوار بعض تحت ظلال خميلة قامت على حافة الغدير ومدت عليها ملاءة بيضاء ، وقدمت لى وسادة من الكاوتش المنفوخ فأسندت عليها رأسى وقالت مبتسمة : ـ « لك أن تستعين على النوم بالقراءة ، فهنا صحف وكتب أو بالغناء ومعى الحاكى ، كما أن فى ستطاعتى أن أغنى لك فصوتى محبوب عند أصحابى وصاحباتى . »

* * *

ومسحنا عن عيوننا ماتبقى فيها من سمات الكرى ، وقد مال ميزان النهار نحو الغرب . فقامت فراو زيلج إلى إحدى اللافتات ثم بسطت أمامها خريطة واستذكرت فى رأسها بعض الأماكن . وقالت : ـ « إن فى كأس اليوم ثمالة لابد لنا أن نأتى عليها . أسرع بنا إلى السيارة . » فسرنا هذه المرة فى طريق ضيقة غير ممهدة تقول فراو زيلج أنها لم تقطعها من قبل ولكنها خمنتها موصلة إلى محلة . . .

ولم يطش حسابها ، فوصلناها قبيل الغروب .

فألفينا أرتالا من السيارات وقوفا فى صفوف متقاربة ومتلاصقة أمام خيام مضروبة فى هذا العراء وقد تسللت خيوط الأضواء الكهربائية من فرجاتها أو أبوابها إلى الخارج فخلت جيد العتمة بسلاسل من نور ونار أشاعت فى النفوس مزيجا من الروعة والرهبة . خلفنا عربتنا حيث أشير علينا بتركها ، واقتحمنا على السمار مجالسهم وطلعنا نكافح جموعهم من قائم وقاعد بضع دقائق حتى بلغنا مائدة شاطرنا أصحابها الجلوس إليها وكنا على مقربة من جوقة الموسيقى فروحنا عن أنفسنا بسماعها بضع ساعة . ثم عدنا إلى سيارتنا وأخذنا طريقنا إلى العاصمة وهناك افترقنا قبيل انتصاف الليل .

وهدأ الهواء الرطب أعصابى فاسترخيت على مقعدى لا أفكر فى شىء إلى أن وصلت إلى دارى ودخلت فى فراشى وهناك استغرقت تلك الليلة فى النوم وقمت فى الصباح نشطا معافى كأن شبابى رد إلى ، واشتدت شهوتى للطعام وزادت قابليتى للعمل فحمدت للسيدة هذه اليد فى نفسى . فجاءتنى فى نفس اليوم تطلب منى مصاحبتها إلى إحدى دور السينما فاعتذرت لها بأعمالى فى تلك الليلة .

فى دلال : ـ « هل لى أن أسأل عن نوعها إذا لم تضرك الأجابة . »

« الأشراف على النادى العربى ، فأنا رئيسه والمسؤل عن أعماله »

« وكم يستغرق عملك هناك من الزمن ؟ »

« ربما امتد إلى الساعة الثانية عشرة »

متوسلة : « حسنا ـ الليلة تقيم سينما « أوفا » حفلة خاصة بعد الثانية عشرة ، وهى من الحفلات النادرة التى تقيمها كل عام ، وحق علينا أن لا ندع مثل هذه الفرصة تفلت منا »

ولم يكن لى علم بمثل هذه الحفلات النادرة ، ولا كان فى مقدورى أن ـ

أرفض دعوتها بعد ماقدرت أن عملى ينتهى عند منتصف الليل فقبلت عرضها ولكن فى غير تحمس .

ولاحظت عليها بعد تلك الليلة أمورا أخذت تقلق بالى .

١ ـ هذا الأغراق فى إكرامى والتودد إلىّ

٢ ـ محاولة ملء فراغى والتسلط عليه مما أفصانى عن أصدقائى ، وكاد يلفتنى عن أعمال النادى

٣ ـ اهتمامها الذى تحاول أخفاءه بشئون النادى ، مما أثار الريبة فى أنها هى التى تغذى حملات لندن علينا .

فرأيت أن أضع حدا لهذه الحال فأخذت أقف فى وجـــه رغباتها بالحق وبالباطل فلم ألبّ لها طلبا بعد ذلك ، بل بدأت أهاجمها وآخذ حذرى منها فلا أترك فى حضورها ورقة على مكتبى تنم عن أعمالى ، فعتبت علىّ مسلكى الأخير فرددت عليها عتابها فى قسوه ، فاشتدت معى وصانعت ، وصانعت وتشددت ، فهددتها بالامتناع عن التدريس لها ورفضت هداياها ودعواتها :

وعدت فى ظهر أحد الأيام إلى مسكنى فأنبأتنى صاحبة الدار أن رجال البوليس قدفتشوا غرفتى ، أنى مطلوب الساعة فى القسم . فأخذت طريق إليـه ، وهناك لقيت الضابط المسئول ، فاستجوبنى فى أمور لاعلم لى بها ، ولا يد لى فيها. فلما تأكد من براءتى مما نسب إلىّ سألنى : ـ

« ألك خطيبة أو صديقة ؟؟ »

« لا ! »

« أتعرف صاحبة الآلة التى كتب عليها هذا البلاغ » وقربه من عينى دون أن يمكنى من الاطلاع على محتوياته .

« لا ! »

« تذكر فانك لاتخدم بذلك نفسك فحسب ، بل إنك تخدم كذلك العدالة في المانيا . فقد أدخل الفورر مادة جديدة في القانون تعاقب المختلفين بنفس العقوبة التي كانت ستنزل بالمبلغ فيه . هل تعرف أن التهمة التي نسبت إليك لو ثبتت عليك كان نصيبك الأعدام »

في نفسي : « ليت قانوننا المصري يأخذ بهذه المادة فما أشد حاجتنا إليها . »

« آسف لعجزي ، وليس في طاقتي ولا من طبيعتي الوقيعة بأحد . »

« ابحث وفكر لعلك تهتدي ! »

ونهض رجل البوليس فشيعني إلى الباب .

خرجت من عنده غير مكترث لشيء ، لأني كنت واثقا من براءتي متيقنا مما أصنعه . وفي الطريق إلى الدار التقيت بفراو زيلج تقطع شارع « أوجسبورج » فسألتني من أين جئت وإلى أين ذاهب »

فقلت في هدوء : ـ « من مركز البوليس لأجيب على تهمة عقوبتها الأعدام ، وإلى الدار لاستأنف نشاطي »

قالت وقد تغير لونها : « وماهي هـــذه التهمة ، وهل عرفت الأنذال الذين وشوا بك . »

« أما التهمة فهي الترويج لمذهب خطر . وأما الذين أوقعوا بي فمعروفين لي »

« ومن يكونون »

« إن الأمر لايحتاج إلى عناء أو كثير من الذكاء . هناك قاعدة مشهورة لايعتورها الخطأ تقول ـ إذا أصابك ضر ، فأقصر بحثك عن مسببه بين أقرب المقربين لك من أصحابك ، وحلل موقف كل فرد منهم على حدة ، ولن يطول بحثك حتى تضع أصبعك على الأثيم . وهكذا فعلت . »

« هذا كلام جميل . ومن هم أولئك السعداء والتعساء الذين كتبت لهم الحظوة عندك » .

« ثلاثة يا سيدتى ـ الرسام شولتسا ، وسكرتير النادى العربى وأنت . . . وشولتسا فنّان يعيش فى دنيا الفن وحسبه ، ولا يهمه شىء آخر فى العالم غير الفن ؛ وسكرتير النادى فتى عراقى على خلق عظيم ، وهو يحبنى حبا ليس بعده مزيد . . . ثم توقفت عن الكلام . »

فصرخت بأعلى صوتها فى الطريق العام « تكلم وأنا ؟ » .

فى هدوء « لماذا تصرخين ؟ أنا لم أقل شيئا » .

« إذن تكلم بخير أو شر ، فأنا لا أطيق ظلا من الشك يثار نحو شخصى » .

« لست قاضيا أيتها السيدة ، ولا أسمح لك باستجوابى على هذا النحو » .

فعادت إلى الصراخ ثم بكت المرأة حتى بللت وجنتيها وأنا منها كالصخر لا أتحرك من مكانى . ثم قالت وهى تمسح دموعها : « أحب أن ألقاك الليلة لأسمع جوابك . »

« ليس لدى وقت لك الليلة » ثم غادرتها قبل أن أسمع جوابها على ذلك وقلت لصاحبة الدار أن لا تسمح لها بالدخول فى غرفتى بعد اليوم وجاءت إلى دارى فى المساء فردت خائبة على أعقابها ، فكررت زيارتها لى فى اليوم التالى فرفضت مقابلتها وانتظرت فى صبيحة اليوم الثالث أمام دارى ، وكانت مواعيد انصرافى وعودتى معروفة لها ، فأقبلت علىّ دامعة العين فسلمت عليها فى برود ، فبادرتنى متسائلة « ألم تتحقق من براءتى » .

« وهل قلت لك شيئا ؟ دعينا من ذلك »

فأخذت تندب حظها طامعة أن أخفف عنها بكلمة فلم أفعل ، وثارت لكرامتها فجففت دموعها وقالت متحدية : « والدرس ؟ ألا تريد أن تستأنفه معى » ؟

قلت : « أرجو المعذرة ، فإن قضية فلسطين تكاد تستغرق كل وقتي » .

قالت في غير تلعثم : « وكيف تحصل على قوتك وهؤلاء الوشاة الأجلاف لا يحسون بآلام نفسك . »

ـ « لا تقولي هذا عن بني أهلي ـ ولا تخشي عليّ سوءا فإن ظروفي المالية الآن خير بكثير عن ذي قبل . فقد كفاني ثلاثة منهم ألقنهم الألمانية مناعب تدريس العربية للأعاجم . »

« فكر قليلا ، أنهم سيتخلون عنك في يوم قريب بعد أن يوردوك موارد التهلكة ونحن أبقى لك في محنتك . »

« أشكرك لقد عشت في ألمانيا لا أفكر في غدي ، وهكذا أحب أن أعيش فيها . »

« اقتراح آخر . لنترك الدرس جانبا ، ولنبق أصدقاء نتبادل المعاونة في بلدما أشد قسوته على الغريب . »

ـ « ولا هذا أيضا »

ـ « أنت إذا متغير النفس من ناحيتي ، شاك في أمانتي »

وأصمت فتبتعد عني مسرعة الخطى في اتجاه مضاد .

وتعود فتلقاني في اليوم التالي نادمة وتقول : ـ « إن ضميري مثقل ولم أعد أقوى على الحياة ، ولا بد لي من الاعتراف بجرمي . أنا التي أوقعت بك عند البوليس . وما حيلتي وأنت عني عن حبي لك ، ومنزلتي من نفسك دون منزلة غلمان العرب بمراحل ، إنها الغيرة التي أفقدتني صوابي ، إلا صفحت عني . »

« الغيرة ! ؟ إن هناك أسبابا أخرى أكبر وأهم من ذلك بكثير . »

نادبة حظها : ـ « أقسم لك على ذلك . »

ـ « من يدري دعيني الساعة فعندي أمور ملحة »

وفي اليوم التالي تسللت منها بالبريد كتابا أرى ضرورة إثبات ترجمته الحرفية فيما يلي : ـ

ترجمة الأصل

برلين فى ٢/٨/١٩٣٨

عزيزى حسنى !

لم تتح لى حتى الآن فرصة أخرى للتحدث معك ، ومع أنى قد خففت عن ضميرى ما أثقله (بالاعتراف لك) إلا انى مازلت أجدّ وراء الراحة فلا أجدها.

لقد قال بعضهم « ماجاء الندم فى يوم ما متأخرا » وكم أود لو استطعت الصفح عنى والوثوق بى مرة أخرى . لم أسمع منك لوما على فعلتى . وكان خيرا لى لو أنك ثرت فى وجهى وصرخت ، فأنى أستحق ذلك منك . ولكن جهلى بما يدور فى خلدك زاد فى تعاستى . لقد كان عملا غاشما لا يقبل فى الحق صفحا ، ولكنى فى الواقع كفرت عنه تكفيرا بالغا وليس هـــذا بما أقاسيه من ألم ولكن بما رضت عليه نفسى من الذلة والمسكنة . كل شىء محتمل إلاّ أن تعتقد فىّ أنى رديئة أو كاذبة . اطلب منى ماشئت ولكن لاتحتقرنى ، إنه يستحيل علىّ أن أفسر لك الأمر لبرودك وقسوتك فليس فى طاقتك أن تدرك مثل حبى ففكرى معك فى كل دقيقة من دقائق النهار والليل ، ومامرّ بخاطرى قط أن أسيئك بضر ، وأعتقد أنى لم أسىء اليك فيما مضى ، بينما أنت كثيرا ماجرحت شعورى عامدا . على أية حال مهما يكن الأمر فان هذا لن يصغّر من جرمى . أرجو أن تصفح عنى . فأنا نفسى لم أكن أعرف فىّ شيئا من هذا . حتى بت أخشى من نفسى على نفسى . ومما يؤسف له أنى لا أستطيع أن أعتذر بمرضى ولكننا بشر ، ونحن فى قتال مستمر مع قوات الخير والشر (يوسوس الشيطان فى صدور الناس)

على أية حال يسرنى بحق أن كل شىء يسير الآن طبقا لرغباتك ، وأنى لأطمع

فى أن يخفف مزاجك المرح من حكمك علىّ ، وحسبى عقابا صمارما أن رأيتك اليوم مرحا وأنى لا أشاطرك فى مرحك . أرجو من كل قلبى أن تكون رفيقا فى حياتك ولو مرة واحدة إنك تساعد جميع الناس . فساعدنى مرة أخرى » ،

الزا زيلج

واقتنى المرأة بعد وصول جوابها إلىّ ببضع ساعات فرأت أمارات المرح بادية على وجهى ، فأقبلت علىّ فى لهفة قائلة . « لعلك قد التمست لى عذرا ولعلك تثق بى بعد الآن »

فى جرأة الواثق : — « منذ متى تعملين لحساب بريطانيا ؟ » .

محمرة الوجهين « أجاسوسة أنا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ » .

« أرجو أن تجيبى على سؤالى » .

متحمسة : « أنا سيدة شريفة ميسورة لا أؤجر لأحد ، ولكنى أحب بنى جنسى ، وأبغض الألمان والعرب . . . . »

مقاطعا : « ولهذا اتصلت بى ونقلت أخبارى وأخبار النادى العربى لأسيادك الانجليز — أنا يا سيدتى لا أخشاك ولا أخشى سادتك كونى كما تشائين فلا يعنينى أمرك بل لك أن تصنعى بى كل ما تستطيعين كما أنى أقيد نفسى أمامك بوعد رجل شريف أنى لن أقف منك إلا موقف المدافع وأنت تعلمين أن بيدى أن أفصل رأسك عن جسدك ولكن ما قيمة أمثالك لنشغل أنفسنا بهم » .

فكرت قليلا ثم قالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرة « حقا إنك رجل (أسبور) سآخذك بوعدك » وهزت يدى علامة الرضا والموافقة .

ولم أرها بعد ذلك إلا فى محطة « أسلنا بانهوف » فى أواخر شهر ديسمبر عام ١٩٣٨ وأنا آخذ القطار إلى بلدى . كيف علمت برحيلى ، وكيف عرفت موعد القطار ، فما لا شك فيه أنى كنت تحت رقابة شديدة من وكلاء الجاسوسية البريطانية .

صديقى عبد الرحمن

كتاب من مصر ! ! !

ليت شعرى عن الذين تركنا خلفنا بالعراق هل يذكرونا ؟ ؟

ألم يفتنا الناس هناك من أهل وأصدقاء أو تناسونا ؟ لعل صنفا من صنوف الضيم والأذلال بقى فى كنانة القوم يريدون إنزاله بى . وكأن حبلا من قنب شدّ إلى عنقى وصدرى فتفتحت جراح كانت قد التأمت على صديد الوجيعة وماء الأسى فتلويت فى مكانى من الألم والكتاب فى يدى فألقيت به أمامى مختوما غير مفضوض فترة من الزمن . . .

وكم كانت دهشتى عظيمة حين علمت أنه من صديقى عبد الرحمن وأنه قد خطا خطوة بل خطوات فى سبيل تنوير الشعب المصرى والرجال المسئولين بقضيتى . . . وفيما يلى بعض هذه الخطوات .

١ ـ ألف على أثر وصوله إلى الأسكندرية لجنة للدفاع عنى .

٢ ـ انضمام عدد غير قليل من رجالات البلد إليها وفتح باب الانضمام من يشاء من أحرار الفكر فى مصر إليها .

٣ ـ أعداد وفد لمقابلة أولى الأمر ، ورفع التماس بطلب إعادتى للوطن .

٤ ـ عمل مطبوعات دورية عن قضيتى وتعميمها بقدر الأمكان بين مختلف الطبقات لإيجاد رأى عام يسند اللجنة فى دفاعها . . . الخ . . .

وطلب منى صديقى فى كتابه أن أكون على اتصال دائم به وأن أمد اللجنة بملاحظاتى أولا فأولا وقد أرفق بكتابه .

١ ـ قصاصات من جميع الصحف والمجلات بها نبأ تأليف اللجنة وأسماء أعضائها وقد تفضلت بعض الصحف بكتابة كلمة عطف علىّ .

٢ ـ نسخة من منشور اللجنة الأولى إلى رجال الحكومة وإلى الرأى العام .

صدق الرجل وعده . وها هو ذا يضحى بوقته وماله ، ويعرض نفسه للتهمات ، ويثير ضد شخصه نقمة الأنجليز وعمالهم ، وما كان أغناه عن كل ذلك ؟ حقا أن مصر لم تخل يوما من الخيرين الشجعان كما يتوهمه الواحد فى حالة يأسه أو خبله إن فيها ذوى أريحية وعظماء وفيها جنود مجهولون وأشبال ذوو قلوب كبيرة . لم أكن قط مخطئا فى تفاؤلى طول حياتى ولكنى كنت مضللا فى تشاؤمى فى ساعات شدتى . يستوى عندى نجح الرجل أو فشل فى مسعاه ، وحسبى أنه رد إلىّ إيمانى فلن تقوى الأحداث بعد اليوم على زعزعته ، فقد أصبحت الحياة عندى تستحق الحياة من أجل مصر ، وبات الكفاح والاستشهاد أعذب فى الفم من ماء الحياة على شفتى السقيم بعد عناء المرض وطول عذاب . . .

وتخور قواى بعض الشىء من طول الهوان فى المنفى فأقول : ـ « ترى يفيد هذا المسعى ؟ » وأعود فأردّ على نفسى : ـ « ماهذا الضعف والتردد ؟ ألم تقل الآن إنه يستوى عندك النجاح والفشل ، وإنك مزمع على الكفاح حتى النفس الأخير . ـ انهض للكفاح وارفع رأسك عاليا . إن فى مصر أصدقاء فى انتظار تعليمات منك . . . »

وكنت قرأت فى الصحف الألمانية أن سعادة حسن باشا نشأت سفير مصر فى برلين فى طريقه إلى مصر فأبرقت لصديق عبد الرحمن أن يستقبله مع وفد من اللجنة على ميناء الاسكندرية ، وأن يسأله عن قضيتى وعن مسلكى فى ألمانيا ، وأن يعمل على إذاعة تصريحه فى الصحف . ثم كتبت له كتابا شكرته فيه على مروءته ، وحملته تحياتى وامتنانى لزملائه أعضاء اللجنة ، وطلبت إليه تأليف وفد كذلك لزيارة دور الصحف . وأن يجتهد فى ضم بعض الصحفيين

إلى لجنته ، وأرفقت بكتابي تقريرا مفصلا عن مأساتي ليستهتدوا به في كل مايعملون .

ورأيت من الحكمة أن أسند اللجنة في جهادها في الداخل والخارج بمدد من عندي فتمكنت من إقناع بعض المصريين في براين بالأبراق إلى الجهات العليا في مصر ملتمسين إعادة حقوقي إلى ، وكتبت لأصدقائي وغيرهم من الصحفيين في مصر أناشدهم بسط قضيتي فلبّى المقطم والأهرام ندائي ، وكتب « خليل بك ثابت » افتتاحيتين من نار حمل فيهما حملة شعواء على الحكومة المصرية ، وشبه قضيتي بقضية « درای فوس » في فرنسا ، ولم يكن في الدفاع عني بأقل من « أميل زولا » في الدفاع عن « درای فوس » . ونشط الكاتب الاستاذ « عباس المصفي » من الاسكندرية للدفاع عني في الأهرام أكثر من مرة فتهيأ بذلك جو طيب للجنة .

ووصل سعادة حسن باشا نشأت إلى الأسكندرية واستقبله وفد من اللجنة على الميناء وأخذ منه حديثا عن قضيتي كان كله انتصارا لي وعطفا علي . وقد تفضلت الصحف بنشره في حينه .

ووردت الأنباء بتأليف وفد بعد الأعلان عنه ، وزار الوفد فيمن زارهم دولة النقراشي باشا وزير الداخلية في ذلك الحين ، وليس النقراشي باشا من طراز الوزراء الذين يستقبلون كل يوم الوفود وطلاب الحاجات ليطيب خاطرهم ويعدهم خيرا ، ولا هو بالرجل الذي يعد ولا يفعل . ولكنه رجل نسيج وحده لم يكرم وفادتهم ولا أساء لها ، ولكنه كان قاضيا حازما يريد أن يعرف كل شيء ليقول كلمته الأخيرة ، لا ، بل ليعمل أكثر مما يفعله القاضي فهو ينفذ حكمه بنفسه . فسأل كل فرد من أفراد الوفد عن علاقته بي ، وعن الدافع له ، على ذلك واشتد في تحرياته معهم حتى هاب بعض أعضاء الوفد الموقف وخشي

على نفسه السوء لما عرف عن دولته بالحق أو الباطل من الشدة . ولما تحقق من إجابتهم قال لهم : « سأبحث الأمر بنفسي ، وأعد بانصاف الرجل ، إذا صدق ما ذكرتموه . »

ومضت أيام وأسابيع على هذه المقابلة ، ولم تظهر نتيجة لها . ويئسوا ويئست من وعد الرجل وقلنا فى رعونة صاحب الحاجة وزير كغيره من الوزراء ليس عندنا له شفيع أو شفاعة مما يشفع بها عند الكثيرين فى مصر ـ فلنعتمد على أنفسنا وأساليبنا فى الكفاح ، ولو تطلب الأمر دخول البلاد عنوة ، وفى الوقت الذى مر هذا الخاطر برأسى مرّ برأس صديقى عبد الرحمن فكتب إلىّ فى هذا الشأن ، على أن يقوم بعمل كل ما يلزم ، وبعدئذ لتصنع بنا السلطات ما تشاء وتفاهمنا على الوسائل وقبل البدء فيها ، علمت من صاحبة الدار أنى مطلوب بالسفارة .

ـ « أية سفارة ؟ » .

ـ « لا أدرى لعلها سفارتك ، السفارة المصرية . »

فأشهق مطأطىء الرأس ، وأقول لها فى ذلة وانكسار ، ـ « وهل لى سفارة هنا أو فى أى ركن من أركان العالم . إنهم لا يعترفون بى . هدروا آدميتى فى مصر ، وقضوا علىّ بالأعدام المدنى فى ألمانيا وباتت عيونهم تكتحل بالسكرى بعد قضائهم علىّ ، كأن لم يرتكبوا إثما ، ليت لهم قلوبا تحس ، وعيونا ترى ، وأذنا تسمع ، هؤلاء قوم انطوت قلوبهم على الشر والأخذ بالثأر . سفارتى ! ! ! ها ! ها ! لقد كانت لى سفارة أيام كنت مصريا ، أما اليوم فأنا شريد طريد منبوذ من مصر . . .

وأول ما تبادر إلى ذهنى أن السفارة العراقية قد طلبتنى وأن المرأة قد أخطأت ، فاتصلت بالسفير والملحق التجارى فعلمت أنهما لم يطلباني . فطلبت السفارة المصرية فى استحياء واستخذاء ، ولما أجابت علىّ وضعت السماعة مكانها

دون أن أنبس ببنت شفه ، ورجعت إلى مكتبي ذليلا مدحورا .
وبعد قليل طلبت على التليفون وقال السائل بالألمانية . « هنا السفارة المصرية المتكلم فلان ؟ »

ـ « نعم » .

فاستأنف محدثي في الحال حديثه بالعربية : « هنا فلان ، كيف حالك أرجو الحضور الى مكتبي بأسرع ما يمكن لأمر هام ، أقادم الساعة ، الآن ، على التو ؟ أعني في الحال » .

« سأحضر » .

في السفارة المصرية

أأعيدت إلى حقوقي ورد إليّ اعتباري ؟ هيهات هيهات أيها الأبله ! ! هذه أمنية طالما عكرت على صفو الساعات التي اختلستها من أنياب الزمن وقديما قالوا :

والأماني حسرة وعناء للذي ظن أنها تعليل

الفطنة في افتراض السوء ، سأكون على حذر ، وسأعرف كيف أرد إليهم إساءاتهم إذا فكروا في الأساءة إليّ . . . بمثل هذا وغيره قطعت الطريق إلى السفارة المصرية أتحدث إلى نفسي وتتحدث إلى غير آبه بما حوالي .

وقابلني ذلك الموظف مرحبا ، وضمني إلى ذراعيه ، وقبلني في جبيني وقال : « أردت أن أكون أول المهنئين ، كم كان ألمي شديدا لما أصابك ، ولابد أنك عاذري في عدم الاتصال بك كل هذه السنين ، فأنت تعلم ظروفنا ـ أرجو أن تعتمد على أنا وحدي في أية مساعدة تحتاج إليها » .

« وعلام التهنئة ؟ » .

ـ « بالسماح لك بالعودة إلى أرض الوطن . تعال معي لمقابلة القنصل .

سيقول لك كل شيء - إنما أردت أن أسبق المهنئين ، وقد تم لى ما أردته . »

ودخلنا على قنصل مصر فى برلين الأستاذ (رستم بك) وهو رجل وديع الخلق ، طيب القلب ، ينم مظهره على أرومة ذكية الأصل والفرع قال : « جاءنا كتاب من (معالى) النقراشى باشا بالسماح للدكتور عنايت بالعودة إلى مصر والدكتور عنايت يعيش فى فينا ، ولا صلة لنا به ، فأعدنا الكتاب إلى قنصليتنا فى فينا . ولما كان سفيرنا الجديد (سعادة مراد باشا سيد أحمد) يزور الآن فينا فقد علم من هناك أنه قد ورد خطأ على قنصليتها كتاب آخر من (معالى) النقراشى باشا بالسماح لك بالعودة إلى مصر فأمر بإرسال الكتاب إلينا ولم ينتظر سعادته حتى وصول الكتاب إلينا، فاتصل بنا بالتليفون من فينا لأبلاغك هذا النبأ السار مع تحياته وتهانيه... وأنا بدورى أقدم لك أجمل التهانى ، وأرجو أن تعتمد علىّ فى أية مساعدة تحتاج إليها . »

« فلننتظر حتى نعرف مضمون الكتاب ، فربما كانت تهنئته سابقة لأوانها »

وسرعان ما انتشر الخبر بين الجالية المصرية، وبين معارفى من غير المصريين فتوافدوا علىّ مهنئين راجين أن أعتمد عليهم فى أية مساعدة أحتاج إليها .

وعاد القنصل وطلبنى إليه بعد يوم . وأخطرنى أن كتاب النقراشى باشا قد وصل .

- « هل لى أن أطلع عليه ؟ »

- « معذرة ، فأن لأعمالنا حرمتها »

- « هل لى أن أعرف شيئا من محتوياته فيما يخصنى ؟ »

- « السماح لك بالعودة إلى مصر . »

- « بجواز سفر مصرى ؟ »

- « نعم »

ـ « إذن ردت إلى جنسيتى »

ـ « وهل هناك شك فى أنها سترد إليك ، ما دامت الحكومة قد سمحت لك بالعودة . »

ـ « أفهم من ذلك أن جنسيتى لم ترد إلىّ بعد . فكيف يتفق هذا وقولك أنى سأسافر بجواز سفر مصرى ؟ »

ـ « هذا أمر هين ، بتذكرة مرور مصرية »

ـ « لا ياسيدى ، أنا شاكر للباشا هذه اليد ، ومقدر له هذه الشجاعة التى خانت غيره من الوزراء حتى الأصدقاء منهم وذوى القربى . لن أنتقل من برلين حتى تعود إلى جنسيتى . »

ـ « ماذا تقول ؟ وهل تظن أن الحكومة تعيدك إلى مصر ، وتتركك فى بلدك طريدا مشردا ؟ إنها لم تقدم على ما أقدمت عليه إلا بعد أن استوثقت من من براءتك مما نسب إليك . إن كتاب النقراشى باشا يفيض عطفا عليك ، بل إنك لتعجب أنه يكاد يكون كتابا شخصيا فقد كتبه وأمضاه بنفسه على (فولسكاب) ولم تجر العادة باستخدام (فولسكاب) كامل فى الكتابة ، إنها مسألة إجراءات لا أكثر ولا أقل . »

ـ « أنا أعرف الأجراءات الحكومية عندنا فى مصر ، وأخشى أن لا تبعث أوراق الجنسية من مرقدها بعودتى . »

ـ « على العكس من ذلك فأن وجودك على مقربة من الأوراق وسعيك وراء إنجازها سيحركها من مكان إلى مكان . لا تتردد فبقاؤك بعيدا ربما أسدل ستار النسيان على قضيتك . »

ـ « دعنى أفكر . »

وخطا أصدقائى وجهة نظرى ، وصوبوا وجهة نظر القنصل ،

وتحت الحاح الجميع أذعنت للأمر الواقع وأخذت أعد نفسى للعودة إلى أرض الوطن ، ولو أنى علمت فى آخر لحظة أن الدكتور عنايت رفض العودة إلا إذا ردت إليه جنسيته قبل مغادرة فينا .

ومما شجعنى على الرضوخ لنصيحة الناصحين أن النادى العربى قد ارتفع صوته ، وعلت كلمته ، وأصبح مرهوب الجانب مرموقا من الجميع بعين الخوف والأعجاب ، واتسع نطاق عمله ، وأخذت مشاكله تشتد وتتزايد يوما بعد يوم ، فقد قررت لجنة الرحلات القيام برحلة دراسية فى شمال أفريقيا ظاهرها الدرس العلمى والترويح عن النفس ، وباطنها التحريض والتعرف على العناصر الثورية المناهضة للاستعمار هناك ، كما أن لجنة فلسطين قررت عقد مؤتمر فى سويسرا من العرب المقيمين فى أوربا ، وطلبت اللجنتان إلىّ أن أرافقهما فى رحلتيهما . وكان يتعذر علىّ مغادرة ألمانيا بسبب تجريدى من جنسيتى ، مما أطلق ألسنة السوء من خوارج العرب ضدى ، كما أن لجان العرب خارج ألمانيا بعثت تستفسر عن أسباب امتناعى عن حضور أول مؤتمر لهم ، وكم كنت أتلهف على سد هذه الثغرة على عقارب النميمة خوفا على وحدتنا ، ولا أجد طريقا إلى ذلك ، فقد كان المجردون من جنسياتهم كالوباء تضرب كل حكومات الأرض حولهم نطاق صحيا فلا يسمح لهم بالتحرك من محلات إقاماتهم فرأيت أخيراً أن أسارع بالعودة إلى مصر لأنهاء مشكلة الجنسية والحصول على جواز سفر مصرى يعيد إلى حريتى فى التنقل ، ويقطع الطريق على النامين ، والضعاف والمترددين . فأعلنت إذعانى لرأى القنصل ، فقال : - بقى على إنجاز الشكليات ، تكتب تعهدا بعدم التدخل فى شئون العمال عند عودتك ، وقدم لى ورقة فيها شىء بهذا المعنى فأمضيته . وتسلمت منه تذكرة مرور مصرية مؤشر عليها بحق الأقامة فى مصر لمدة عام .

فطلبت مساعدته عند حكومتى سويسرا وايطاليا لمنحى فيزة مرور ضرورى بهما فى طريق عودتى فحاولت القنصلية ذلك ، ولكن ممثلى الحكومتين ترددا فى الأمر .

فكتبت للحكومة الألمانية أخطرها بسفرى وطلبت إليها مساعدتى عند رجال الدبلوماسية السويسرية والأيطالية ، ورجوتها أن تسهل لى قبل سفرى :

١ ـ زيارة بعض معاهد التعليم ومعسكرات الاعتقال والسجون ، ومنظمات شباب هتلر .

٢ ـ الحصول على بعض المراجع التى لا توجد فى سوق الكتب .

فكتبت إلىّ وزارات الخارجية والداخلية والدعاية تستزيرنى ، أما وزارة الداخلية فنبهتنى إلى ما يلزمنى استيفاؤه من الاجراءات قبل التفكير فى الرحيل ، وأن وزارتى الخارجية والدعاية معا ستعملان على تلبية طلباتى بقدر الأمكان ، وفى الخارجية نصحنى رئيس القسم الشرقى بعدم العودة إلى مصر قبل رد الجنسية إلى وحصولى على جواز مصرى ، وعرض على التجنس بالجنسية الألمانية فرفضت عرضه فى أدب قائلا : « أما أن أعيش مصريا أو بدون جنسية » فأكبرنى الرجل وهز يدى علامة الأعجاب والاحترام . وسألته عن طلبى ، فقال إنه من أعمال وزارة الداخليه وقد كتب لها موصيا بى خيرا . وودعنى راجيا لى سفرا سعيدا ، وعودة قريبة . ثم وقف مترددا فى وسط الغرفة وحك قفاه وأنفه وقال « لقد شهدت عهدين فى ألمانيا ، وكل مانطمع فيه منك أن تنصفنا فى بلدك ، فقد تجمع لك من الحقائق ما لم يتجمع لغيرك من مواطنيك ، وإذا كنا قد قصرنا معك ، فللضرورات مايبرر تقصيرنا ، إنك سياسى وصحفى وخطيب وباستطاعتك أن تفعل شيئا للبلاد التى ضمتك عند ماتنكرت لك بلادك . »

« ثق أنى سأفعل كل مايوحيه إلى ضميرى . »

وتردد على وزارة الدعاية عدة مرات وأخيرا قيل لى أن زيارة السجون والمعتقلات غـــير مصرح بها ، وأنه قد اتخذت كل الترتيبات لتسهيل زيارتى للمدارس ومنظمات الشباب الهتلرى . كما أن الحكومة الألمانية قد حصلت على موافقة القنصليتين الأيطالية والسويسرية بالتأشير على تذكرة المرور المصرية بالبقاء فى أراضيهما بضع ساعات لأتمكن من مواصلة رحلتى .

إلى متى أعيش فى جلد الأجرب ؟ وماذا يخشى منى على سويسرا وإيطاليا إذا بقيت بها بضعة أيام ؟ وماعسى أن تكون حالى إذا أكرهت فى الطريق لأمر ما على التوقف يوما أو بعض يوم . لامحل للجزع وهل هذه هى أولى أو آخر المصاعب التى صادفتها أو سأصادفها فى حياتى ، على أن المسألة حلا إذا زودتنى القنصلية المصرية فى برلين بكتاب توصية لزميلاتها فى طريق .

وعرضت على الوزارة إعطائى تصريحا بأخذ مالى المدخر معى مع إعفائه من الضريبة فضحكت من عرضها ولم ألتفت إلى ماتهدف إليه ، فقال لى محدثى فى لباقة « لايليق بنا أن تعود إلى بلادك صفر اليدين مهلهل الملابس بعد قضائك ثمانية أعوام فى ألمانيا . وستلزمك عدا نفقات السفر نفقات الطريق ونفقات أخرى فى حياتك الأولى فى مصر . »

« لابأس عليك ولابأس على المانيا ، فقد اعتزمت أن أعتمد على نفسى فى تغطية مايلزمنى من النفقات وان أحيد قيد أنملة عن قرارى ـ هذا كرم منك لن أنساه لك . »

وزرت ماسمحت لى الحكومة الألمانية ، وما سمح لى وقتى بزيارته من المعاهد والمؤسسات ، وأخذت أعد العدة لسفرتى .

مسئوليات

وأقضت مضجعى المسؤلية التى أخذتها على عاتقى حيال النادى العربى ، والعمل الذى بدأته ، وأوشكنا جميعا على جنى ثماره ، وكدت أضل فى بيداء الفكر ، ولم أدر لى مخرجا ولا مرشدا ، فأخذت أقلب الأمور على جوانبها ، وأخيرا قر رأيى على إخطار مجلس الإدارة بما جد من الأمور ، وبعزمى على السفر إلى مصر والعودة إليهم فى أقرب فرصة ، وعمل الترتيبات اللازمة معهم للسير بأعمال النادى فى مدة غيابى .

وقد تم بيننا الاتفاق على ما يأتى : ـ

ا ـ طلب إجازة من النادى لمدة لا تزيد على ستة أشهر (من باب الاحتياط)

ب ـ تأليف مكتب ثلاثى لمراقبة أعمال اللجان المختلفة تكون له السلطة المخولة لى .

ج ـ تأليف لجنة سرية لمباشرة الأعمال التى لا ترضى عنها الدولة الألمانية ـ لهذا السبب أو ذاك ـ حتى تكتب للنادى السلامة ، ويتمكن من مواصلة أعماله .

د ـ تنظيم الاتصالات الشخصية بينى وبين النادى .

وجمعت الجمعية العمومية ، واستعرضنا فيها أعمالنا السابقة ومشروعاتنا المقبلة ، ووافقت على منحى الإجازة التى طلبتها على أن يحل محلى مكتب المراقبة الثلاثى .

وأقام النادى حفلة وداع شائقة ، وكرمنى عدد كبير من أفراده فى حفلات منفردة وأخرى مشتركة ، وكذلك فعل معى سفير العراق والملحق التجارى ، وا كتفى إخوانى المصريون ورجال السلك السياسى بهز اليد والإعراب عن تمنياتهم الطيبة لى .

ورأيت أن أحتاط لأمر العـــودة فقصدت السلطات الألمانية وطلبت إليهم إعطائى تأشيرة بحق العودة فى غضون عام إلى ألمانيا ، وعلى الرغم من أن القانون لايجيز إعطاء تأشيرة لعام فقد منحوها لى .

ثم أعلنت صاحبة الدار بالأخلاء فى آخر ديسمبر من عام ١٩٣٨ ، وبقى على أن أعد أمتعتى وأدبر المـال اللازم للرحيل . وكنت اعتزمت على عدم الاستدانة أوقبول منحة من أحد فقضيت ليلة طويلة مسهدا أبحث عن طريق شريف أكسب منه النفقات اللازمة لسفرتى ، والأيام تنصرم يوما بعد الآخر وأنا لا أجد بصيصا من النور لحل هذه المشكلة .

وخطر لى فيما خطر فى ساعة يأس أن ألجأ إلى أخى عبدالرحمن أو غيره من الموجودين فى مصر طالبا مساعدتهم إذا لم يكن من الاقتراض بد ، ولـكنى كنت أحجم فى كل مرة أقدم فيها على التنفيذ . وكنت قد حددت يوم السفر وموعد القطار الذى سيقلنى من برلين إلى إيطاليا ، والسفينة التى سأركبها من تريستة إلى الاسكندرية ، وعرف هذه التفصيلات جميع أصدقائى والرجال الرسميون فى برلين من مصريين وأجانب ، كما أبرقت بذلك الى مصر ، فاشتد جزعى ، ولحظ الناس أمارات القلق بادية على فسروا ذلك بجسامة الأمر وانتحلوا لى الأعذار . . .

لو أن تذاكر السفر كما يبتاع نسيئة ، أو عندى ما أبادل به على تذكرة أو أبيعه ثمنا لها ! ! الآلة الـكاتبة . . . العزيزة الغالية . . .

هى قطعة حية منى ، تسمع خفايا نفسى ، وترى بعينى ، وتحس ما يدور فى رأسى قبل أن يبوح به لسانى ، وتنظمه على الورق فى سطور وفى صفحات وفقا لرغباتى ، وتلحن موسيقاه بأضافة نقط الوقف وعلامات الترقيم إليه . . . . ومن من الناس به مسكة من عقل يتنازل طائعا عن قطعة من جسده وروحه .

صديقتى الوفية ، الخرساء الكتمة عند سؤال السائل أو تحقيق المحقق ، الفصيحة البليغة إذا ما استكتبتها دفاعا أو قصصت عليها قصة من قصص الحياة . . . . . وهل يليق برجل أن يهبط بأصدقائه إلى سوق الدلالة . .

الطيعة اللينة ، كلما تكشفت الحاجة عن طلب المعونة منها ، حسبى أن ألمس مفاتيحها أو أنقر عليها فتلبى مشيئتى ، أسرع فتسابقنى ، وأبطىء فتسير الهوينا فى تؤدة وحذر ، فكيف أجفى عليها وما تجنت على ...

المطاعة الكاسية ، الملهمة المشجية ، فمن تتاجها أعيش ، وبه أغذى روحى أطرب لصوتها أكثر من طربى لصوت البيان ، وهى فى ذاتها أمام عينى نُصب ذكريات لأنامل (الحسناوتين) اللتين وقعتا عليها قصائد الحب والحياة من إملائى ووحيهما . . . .

عاصرتنى حقبة من حياتى فى منفاى ، كاشفتها فيها بأسرار قلبى فى رسائل وذكريات سيبلى الزمن ولا تبلى جدتها ، وانتزعت منى ـ أنا الحيّ الضنين ـ عصارة ذهنى فدونتها فى كتب ومقالات . . . .

لزمتنى فى الشدة والرخاء ، وشاركتنى فى حبى وغضبى ، وفى ثورتى وهدوئى . . . . وأولا وأخيرا كانت ملجأى كلما ضاق صدرى أو انفرجت أساريرى . . . .

لا ، لا ، ان أبيعها ولو تقطعت بى أسباب السفر ، ومسحت عليها بيدى كما يمسح الوالد الرحيم بيده على خد ولده ، أو كما يمسح المحب العاشق على رأس حبيبته ، ونظفتها فى عناية ورفق ، وأسدلت عليها غطاءها كأنى أجنبها عين السوء . « وإذا عجزت الأحداث فى المانيا عن التفرقة بينى وبينها ، فإن أحداث القاهرة فى ما بعد استطاعت أن تفرق بيننا إلى الأبد عام ١٩٤٣ . . . . . »

ولاحت منى التفاتة سوء إلى كتبى ـ ألف كتاب أو تزيد هى عندى أغلى من قيصرية ، وأحب إلى نفسى من زهرة نادرة أو حبيبة ودودة ، ليس بينها

كتاب واحد لا يحمل قصته بين دفتيه أو على غلافه ، هذا عليه توقيع المؤلف أو المؤلفة ، وذاك هدية تذكارية من عزيز أو عزيزة ، وغير هذا وذاك كتب ابتعتها بثمن طعامى فأشبعتنى من جوع . تنتظر عودتى كل ليلة فى غرفة نومى بعد ما يهوم السمار وتسكن الدار ، غير ملولة متضجرة ، فأتسامر مع من أشاء من ذوى العلم والثقافات ، أحياء وأمواتا ، وأقطع معهم هزيعا من الليل ربما امتد إلى الصباح ...

هى الحياة وزينتها وأكسيرها ، وهل ثمة حياة لحى متمدين يحس ويدرك بغير الكتب . وأية زينة تحلى بها دارك تفوق كتابا قيما أو رسالة نادرة تتيه به أو بها عجبا على أقرانك وخلطائك ، وتدخل على نفسك سرورا كلما وقع نظرك عليها . وهى بحق إكسير الحياة الذى نفد صبر العلماء منذ قديم الزمان فى كشفه ، فكلما أوغل الإنسان فى العب والكرع من كئوسها ، كلما أحس بماء الحياة يدب فى عروقه ...

ألم يستثن حتى غلاة المشاعية ملكية الكتب فأباحوها للأفراد ، وهل كان فى طاقتهم أن يفعلوا غير ذلك . جردنى من كل شىء علت قيمته وغلا سعره ، بل جردنى من الحياة ولا تجردنى من كتبى . ألم أعرض نفسى للموت المحقق عام ١٩٢٤ عندما حاولت إدارة سجن الأسكندرية أن تحول بينى وبين الكتب ، ولم يرهبنى يومئذ ملك الموت وهو واقف عند رأسى ولا أفاد معى وعد حتى جاءونى بكتبى ، وعندئذ فقط أفطرت بعد صيام ٢٦ يوما عن الزاد . . . . هكذا خلقنى الله ، وهكذا ركب رأسى لا يستهوينى شىء أو يخلب لبى كالكتاب ، ولا أرانى فى حياتى طأطأت رأسى لصاحب سلطان أو جبار ، إلا لصاحب كتاب ، فليس ثمة محل للتفكير فى الحصول على نفقات السفر عن طريق مكتبتى - كان خاطر سوء ، ولكن الله عصمنى منه . . . . وما نصيب مكتبتى

فى السفر وبعد السفر؟ » (فى عصبية متزايدة) - « وهل هذا هو موضع التفكير الآن ؟ » - (فى سخرية) - « هوّن عليك انما الشىء بالشىء يذكر... » حقا لقد ابتدأت أفكارى تتشتت وتضطرب ، ويخيل إلىّ أنى عاجز عن جمعها ، ولمّ أطرافها وتركيزها فى موضوع واحد . ليست غرفتى بالمكان الطيب لحل مثل هذه المشكلة . . . إلى الهواء الطلق فهو المعين على حل مشكلاتى

وأتهيأ للخروج فيستأذن علىّ فى الدخول الهرليان . ومن يكون ؟

فتى اسرائيلى من طلاب العلم من المهد إلى اللحد ، أصفر الوجه ، نحيل القد ، ضعيف البنية ، كان يتلقى دروسا فى العربية ، ليستعين بها على دراسة العبرية والديانة اليهودية ، ولعله كان يتعلمها كذلك كما يتعلمها رفاقه المهاجرون إلى فلسطين ، زرته مرة من المرات فى داره ، ولم أتنبّها ، فعرفت أن سوء بنيته ترجع إلى رقة حاله ، فقد كان يسكن فى طابق أرضى لا تعرف الشمس طريقها إليه ، وكان أثاث الدار أنقاضا مبعثرة لا تخدع عينا ولا تثير فضولا ، ولم أشأ أن أعرف شيئا عن حاله أو موارده الخاصة ، وإن كان يعلم كل شىء عنى .

والحق أن زيارته هذه أدهشتنى لانقطاعه عن الدرس منذ شهور بحجة تفرغه لكتابة رسالته التى سيتقدم بها إلى الجامعة للحصول على الدكتوراه (فى اللاهوت) ولكن دهشتى لم تطل فقد جذب هو طرف الحديث قال :-

« قالت لى فلانة تلميذتك أنك مزمع العودة إلى وطنك فى غضون أيام معدودات ، فجئت مهنئا ومسلما ، راجيا لك اليمن فى رحلتك ، والعوض فى بلدك عن ما أصابك فى غربتك ، إننى لا أخشى عليك هما بعد اليوم ، فما أحوج مصر بل الشرق كله إلى رجل من طرازك ، له أمانتك ، وتجاربك وصلابة عودك... »

« حسبك إنك تخجلنى ، أشكر لك حسن ظنك بى . . . »

وصمت ليمان هنيهة ، ولكنى قرأت على جبينه حاجة تتلجلج فى صدره ، فتركت له وقتا كافيا للتغلب على تردده ، وصدقت فراستى فقد قال بعد لأى وفى استحياء :- « أنت تعلم أن أمى توفيت هذا العام بعد مرض أقعدها سنتين فى الفراش ، وكانت

عزيزة علىّ . وقد خلفت لى فيما خلفته خاتما من الماس كان أبى الراحل قد أهداه لها فى يوم خطبتها ، وكانت تتحلى به على الدوام . خلعته من أصبعها قبل وفاتها بيوم ، وناولتنى إياه ، وطلبت إلىّ أن أحتفظ به تذكارا منهما . وأخشى ما أخشاه أن يستولى عليه النازى لسبب ما ، فهل لك أن تحتفظ لى به أمانة عندك ، حتى إذا كتب لنا اللقاء فى بلد آخر ، أو أستقر بى النوى فى مكان ما ، رددته إلى . ليس فى ذلك خرق لقوانين الدولة ، فقيمة الخاتم المادية على ما أظن ضئيلة ، ولكن قيمة الأدبية عندى ، وعندى أنا وحدى كبيرة جدا . إن طمعى فى مروءتك كبير - فهل لك أن تصنع معى هذا الجميل ؟ »

ومدّ يده بالخاتم فتناولته منه ، وتأملته مليا ، فأعجبت بصياغته ، فقد كانت تنم عن ذوق ودقة ، فقلت له : - « لا أحسب الدولة تجردك من قطعة كل قيمتها فيما تحمله من الذكرى فحسب ، فأنى لا أظنه يسوى كثيرا . »

قال : - « ولكنى أحب أن أحتاط للأمر . »

فلبست الخاتم فى أصبعى أجربه عن غير قصد فلبسه ، فقال ليان : - « أبقه مكانه فلن تسأل عنه . » وتحت تأثير العاطفة قلت له : - « لك ذلك . »

فشكرنى الطالب الأسرائيلى ، وأضاف إلى ما تقدم : - « لك أن ترتهنه أو تبيعه فقط فى حالة ما إذا تحرجت أمورك ، ولم تجد سببا لتفريجها » (وكأنه كان يحس مقدما بمصير خاتمه ، فقد نضب معينى فى مصر فى عام ١٩٤٢ ، وسدت أبواب الرزق فى وجهى فلم أجد بدا من بيعه بسبعة جنيهات هى دين فى عنق له إلى اليوم) .

وسألنى وهو يودعنى عن موعد القطار واسم السفينة التى سأسافر عليها ، وعن تذاكر السفر ، وكم كلفتنى ؟ »

فقلت له : - « لم أشترها بعد . »

- « اتصل بى قبل شرائها ، فربما أشرت عليك برأى فيها . »

* * *

عجيب أمرنا ، نتعلق فى حياتنا بأشياء ليس لها فى حد ذاتها قيمة مادية كبرى ،

نغضب ونثور إذا مسها ضر ، ونسر لرؤيتها ، ونلاعبها وناغيها ونحنو عليها كأنها كائن حي ، ونحوطها من الأحداث ، وندفع عنها السوء ، ونوصي بها الأوفياء كأنها كنز الحياة . تعوزنا الشجاعة عند مفارقتها ، ونذوب شوقا إليها إذا حيل بيننا وبينها ، ونذكرها في الليل والنهار على السواء كلما عاد بنا الفكر إلى أمس الدابر . وليت شعري أي عجب في ذلك ، وهي روح خالصة وأن تألفت من جماد أمام أعيننا ، فهي سجل مرقوم لذكريات غالية علينا ، لانحتاج في قراءتها لتعلم حروف الهجاء ، يستوي في ذلك المتعلم والأمي ، فهي رمز حي ناطق بلغة صاحبه ، يحدثه عن آماله الحلوة وعن أحبابه ، وإذا شئت حدثته فيصغي إليك وهو معلم متواضع ، وناصح كريم لايضن عليك بالنصيحة ، ولايدل عليك بعلمه . هي جزء منا ونحن جزء منها ؛ لا ، بل هي على الأصح جزء من روحنا ، وما أغلى الروح وأرخص المادة . . .

ربما فهمت الآن تعلق بالآلة الكاتبة ، وبكتبي ، ولعلي فهمت كذلك تعلق هذا المسكين بخاتم أمه ، سأحتفظ له به مهما حدث من الأمور . . .

* * *

وعدت إلى التفكير في نفقات الرحلة ، وساءلت نفسي عما يعنيه ليمان ، بالاتصال به قبل شراء تذاكر السفر ، واعتزمت أن أريح نفسي اليوم من عناء التفكير ، وأن أستوضحه الأمر غدا ، لعلي واجد عنده مخرجا . . . .

ودعوت ليمان إلى زيارتي ، فلبى الدعوة في الحال ، وبدأني الحديث قال : ـ

« يلزمني بعض مراجع عربية من مصر ـ وإليك أسماءها ـ فهل لي أن أعتمد عليك في إرسالها لي ؟ »

« حبا وكرامة ! »

قال : ـ « إذن دعني أدفع عنك نفقات السفر على أن تحسبها من ثمن الكتب المطلوبة ، لأن قانون البلاد يحول دون إرسال نقود ، ويمنحك كذلك من أخذها معك . »

« ولكن نفقات السفر تزيد كثيرا عن ثمن هذه الكتب ، ولا أعرف قيمتها بالضبط »

قال : ـ « احتفظ بالباقى لديك ، أو حوله لى على لندن . »

قلت : ـ « لا أستطيع أن أخرق القانون على الرغم من مغادرتى للبلاد . »

فعلت شفتيه ابتسامة مرة ، وصمت مفكرا ثم قال : « عندى اقتراح آخر لا يضير أحدا ، أعندك مجموعة من أقاصيصك التى نشرتها فى الصحف الألمانية ؟ » .

« نعم ! » .

قال : ـ « بع لى حق إعادة نشرها بالأنجليزية ، تسد إلىّ يداجميلة فى مهجرى ، فتكون لى هناك بمثابة رأس مال . »

عجيب أمر هؤلاء اليهود ! إن اليأس لا يعرف طريقه إلى قلوبهم ، وهم يعرفون كيف يجدون حلا لكل عقدة من العقد ، كما يعرفون طرقا للاستغلال خفيت عن عيون غيرهم من الناس .

وأخرجت ملف القصص من درج مكتبى ، وراجعناها معا ، وعمل ليمان حسابه بدقة على الورق ، وعرض سعرا قبلته دون مناقشة ، وكتب صك البيع وأمضيته له ، وهز يدى شاكرا ، وأنا أكاد أذهل من حل مشكلتى بهذه السهولة ، وعلى هذا النحو ، ابتعت من الثمن تذاكر السفر ، وتبقى معى عشرة جنيهات أنجليزية رأيت أن أحتفظ بها للأنفاق منها فى الطريق وفى أيامى الأولى فى مصر .

وكنت أحسب أن القلق والهموم لم يبق لها طريق إلى نفسى ، ولكن حمى السفر تملكتنى فأقضت مضجعى ، وأورثتنى الوساوس . ومن من الناس يفرق بينه وبين بلده وآله عنوة وظلما ، وتتقطع به أسباب السفر . وتتسد آلامه فى المنفى ثمانية أعوام عجاف ولا تصيبه حمى السفر عند ما يؤذن له به ، ولو كان بيدى الأمر لاستبدلت القطار والباخرة بجناح طائر أو مقعد فى طائرة . . . .

وأخيرا اقتربت ساعة الرحيل ، فودعت المعارف والأصدقاء واستودعتهم الله ، ولم يبق فى عنقى غير توديع الدور والمحلات ، ولهذه الكائنات الجامدة الصامتة

منزلة فى نفسى ، فانسللت وحدى فى عتمة المساء ، وأخذت طريق مشرقا على طول نهر « شبرى » حتى اقتربت من بيت « ألفريدا » فأسندت ظهرى إلى حاجز النهر ، وأطلت التحديق فى نوافذه وشرفاته .

فى هذه الدار ولأول مرة .

لقيت « ألفريدا » الوديعة العنيدة ، العالمة الضليعة ، المزهوة بعلمها ، المتواضعة فى خلقها ، الوفية الكريمة ، الأنيقة فى غير كلفة ، الوسيمة المليحة فى غير زينة ولا تزويق .

وفيها ولأول مرة نما حبى وترعرع ، وتأصلت جذوره فى أعماق قلبى ، وتفيأت ظلاله ، ودخلت جنانه ، وسعدت ونعمت .

وعرفت الدلال والتدليل ، وتجنيت وما تجنت صاحبتى علىّ ، وقضيت على نفسى بالحرمان ، وكتبت عليها الشقاوة ، وبيدى هدمت محراب حبى وكعبة رجائى وشقيت وأشقيت .

وعلى عتبة هذه الدار وكدّت خطبتى بقبلة طبعتها على يد ألفريدا ، فكان لها طعم حلو فى فمى لا يزال أثره باقيا كلما ذكرت فتاتى أو تذكرتها .

واستذكرت قصتنا من الألف إلى الياء وأسفت على أن ألفريدا لم تشهد معى هذا اليوم ، فكم كانت تحن إلى مصر حنينى إليها . . وما الفائدة من البكاء على اللبن المسكوب ؟ وآخذ طريق منكس الرأس عائدا إلى دارى ، فلا أجد فيها راحة لقلبى المحطم فأعود فأغادرها فى نفس الليلة ، وآخذ طريق هذه المرة مغرّبا إلى شارع « بليبترو » ، وأنعطف يمينا كأنى أتفادى عيون معارفى ، وأتغلغل فى الشوارع الموازية حتى أبلغ شارع إيرينا . . . الدور متلاصقة أشبه ما تكون بثكنات الجنود لولا خلوها من الحرس المدجج بالسلاح ، والسكون مخيم على السمار فاهلها نيام ، ولا يوجد نهر ولا مقهى ولا ميدان ولا منتزه مما يهون على العشاق أمرهم ، والوقوف على هـــذه الحال فيه ريبة ومظنة ، وكادت تخوننى قدماى من التعب فأسندت ظهرى إلى شجرة تطل بتاجها على دار إيرينا ، وثبّت نظرى فى الباب الخارجي كأنى أنتظر قادما منه أو وافدا إليه ، وأضنانى الوقوف

على غير جدوى فقطعت الشارع والشوارع المحيطة به فى دوائر ومثلثات ثم عدت إلى الشجرة لأستريح من عناء السير .

فى هذه الدار وليست لأول مرة .

عرفت إيرينا المكاتبة الملهمة ، الرشيقة النحيلة ، ذات الجبين المرفوع ، والأنف الأشم ، والعينين الغزلتين ، والطبع الهادىء .

وفيها قرأنا ، وكتبنا ، وسمرنا ، وأكلنا ، وشربنا فى الصباح الباكر وفى عتمة المساء ، وفى جنح الليل ، وحمرة الفجر ، وفى ضحى النهار وفى عصره .

وتغاضبنا وتصافينا ، وراق لنا ماء الحياة ، وصفا ، ومرّ وكدر .

وقطعناعهودا ونقضناها ، وعدنافوكدناها ، وهددنا بالقطيعة وماجرؤنا عليها .

وفيها أملى الحب أرادته على أحدنا حينا وعلى كلينا أحيانا ، وشربنا كاساته عذبا نميرا ، وحميا غسلينا .

ثم كان ما ليس منه بد ، فناءت إيرينا تحت عبء هذه الحياة المتناقضة ، اللينة الصاخبة ، وآثرت الفرار وفى القلب لوعة ، وفى العين عبرة إلى حيث تفرق بيننا الجبال والبحار والسهول والوديان ، حيث الجنود شاكو السلاح عند كل منفذ وممر يحولون دون اقتفاء أثرها . وهل أنسى وأنا أودعها الوداع الأخير وهى مريضة فى يد الأقدار بين الحياة والموت وقد سألتها : ـ

« أوداع ليس بعده لقاء ؟ »

فقالت : « بل إلى اللقاء الدائم ، وهل من قوة تستطيع أن تفرق بين روحينا ؟ »

وصدقت إيرينا وعدها ، فما ذكرتها إلا وتمثلت أمام عينى ، وما كتبت إليها إلا والتقى كتابها بكتابى فى منتصف الطريق ، وما وفد من تهامة وافد ، أو سافر مسافر إلى نجد ، إلا وحمل تحية أهل تهامة لنجد وسلام أهل نجد لتهامة .

وكانت الليلة باردة ومثلجة فعدت أدراجى أتعثر فى ظلمات الليل من الضعف أهذى تارة باسم ألفريدا وتارة باسم إيرينا وطورا أخلط بينهما ، فقد أصابتنى قشعريرة من الحمى كادت تصرعنى وتوجل سفرى ، ولكن هيهات فان لكل آفة آفة من جنسها ، ولحمى البرد حمى أقوى منها بل وأشد أثرا من كل عقار وهى حمى السفر

لم يبق إلا يوم وبعض يوم على الرحيل ، ولم أهتد إلى رأى فى أمر مكتبتى ، وهل أخلفها ورائى بعد أن أودعها يدا أمينة ، فتكون كذلك بمثابة محرك لى على سرعة العودة ، وكيف أطيق الابتعاد عنها يوما واحدا ؟ ومن يدرى بما كتب لى فى مصر ، أو آخذها معى ، وإذا قدرت لى العودة إلى ألمانيا عادت مع صاحبها؟ بودى لو بقينا متلازمين ، ولكن كيف أستطيع التنقل بألف كتاب غاديا ورائحا؟

وأخيرا قر رأيى على أن أقسمها قسمين ، أترك قسما منها أمانة فى يد صاحبة الدار ، وكنت أثق بها ، وأحمل معى النصف الآخر إلى مصر . وقمت فى الحال إلى صفوف الكتب وكانت مرتبة بدقة وعنايه ، واستعنت بالجزازات التى كتبت عليها أسماء المؤلفات والمؤلفين ، واخترت من بينها بضع مئات من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وأوكلت بها من يشحنها إلى مصر .

وتسلمت فى نفس اليوم برقية من صديق قديم رقيق الحـــال فى القاهرة يستضيفنى فى داره مدة إقامتى فى العاصمة ، فكان له وقع عظيم فى نفسى .

وحملت أمتعتى إلى محط المسافرين غير مصحوب بأحد ، طبقا لرغبتى التى أبديتها لأصدقائى ، ولكنى ألفيت هناك فى انتظارى العجوز أم ألفريدا ومعها بعض الزهور والحلوى وقد استندت إلى عصاها تتلفت يمنة ويسرة مستعرضة وجوه المسافرين والمشيعين باحثة عنى ، وما أن وقع نظرها علىّ حتى استقبلتنى مشرقة الوجه متهللة ثم عانقتنى وقالت :ـ

« وأخيرا . . . . . » ولم تزد حرفا على ذلك .

فقلت :ـ « وأخيرا جئت ؟ أطال انتظارك يا أماه ؟ فيم كل هـذا العناء ؟ لقد وعدتنى أنك لن تأتى إلى هنا ، وعهدى بك تبرين بوعدك . »

صمتت العجوز فترة من الزمن ثم قالت :ـ « وأخيرا . . . » ثم أخذت نفسا طويلا وأفصحت عما فى نفسها فقالت :ـ « وأخيرا قدر للغريب النائى أن يعود إلى وطنه وآله بعد طول عناء ويأس . تعتب علىّ أنى نقضت عهدى ؟ ! وهل بقى فى العمر فسحة نشاطر فيها عزيزا فرحة كفرحتك ؟ » وتمتمت تقول فى

استحياء وعيناها إلى الأرض : « ليت ألفريدا شهدت هذا اليوم ! » ثم رفعت رأسها وقالت بصوت مسموع : « سأكتب لها اليوم . إنها بلا شك ستسر لك من أعماق قلبها . »

فطعنت عجوز اليمن الطيبة قلبي المحطم غير قصد ، ونكأت جروحا في نفسي لا أدري كيف أطببها وأنا حبيس القطار والباخرة . سامحها الله انها عنت كل ماقالته وما ألفريدا إلا وحيدتها التي عاشت لها ومن أجلها ، وما أنا إلا وحيدها بل أكثر من وحيدها ، وهل نسيت أيام كانت ألفريدا تقول وتعني ماتقول : ـ « أني أكاد أغار منك بل أنا أغار من حب العجوز لك . إنها دائما تأخذ جانبك بالحق وبالباطل ، وما أعرفها ووقفت في غـــير جانبي قبل دخولك بيننا »

وفيما أنا منهمك بالعناية بالعجوز ألفيت يد سيدة ممدودة لي مصافحتي فرفعت رأسي إلى صاحبتها فوجدت أمامي فراو زيلبج تضحك بصوت عال وهي تقول : « أعندك بعـــد شك في أخلاصي ؟ وقدمت لي حافظة أوراق كبيرة وقالت : « هذه هدية متواضعة لتضعها على مكتبك للذكرى . »

فتلون وجهي بألوان قوس قزح ، وصرخت فيها بالعربية : « ألا تزالين حية تسعين في الأرض ؟ » .

فردت علي بالألمانية ضاحكة : « ترجم ما قلته للسيدة الجليلة ، ولا ينسك مزاجك العصبي أبسط مبادىء اللياقة . » ثم التفتت إلى السيدة قائلة : « إنه رجل طيب لولا مزاجه الحار الذي ورثه عن أجداده سكان البلاد الحارة . »

وعاد الهدوء إلى نفسي بالتدريج فقلت مازحا : « قيل إن الصياد الهاوي لا يجد في فمه من المرارة ما يجده المحترف يرى صيدا سمينا يفلت من بين يديه ، فأيهما أنت ؟ . »

فأجابت على الفور : « ومن قال إن الصيد أفلت حتى نتناقش في أمر

الصياد ؟ » ودست يدها فى حقيبتها وأخرجت مظروفا وقدمته لى قائلة : « هدية تصلح للطريق ، لا تفض الغلاف قبل أن يتحرك القطار » .

قلت : « لك ذلك . »

قالت متضاحكة : « أو لا تخشى شيئا ؟ » .

« للأسف أو لحسن الحظ أن قلبى لا يعرف الخوف » ووضعت أمام أنفها أوراقا رسمية لتسهيل رحلتى .

* * *

وتحرك القطار . واختفت محطة « أنهلتر » فتركت النافذة مهدود القوى وارتميت على مقعدى وقد توقف جهاز رأسى عن العمل فترة من الزمن ثم تنبهت حواسى شيئا فشيئا فوقع نظرى على مظروف فراو زيلج فسارعت بفضه فوجدت به قصائد غزلية رخيصة ومعها كتاب تقول فيه أنها ستطاردنى فى أى مكان أنزل فيه وأن من الخير لى أن لا أحاول قطع علاقتى بها وأن أكتب لها على عنوانها الجديد فى لندن حيث تعتزم الهجرة بعد بضعة أيام .

* * *

وانطلق القطار بالمسافرين . . . .

ومخرت السفينة عباب البحر . . . .

وتراءت الإسكندرية لنا على بعد فسألت نفسى : « ترى آن للغريب أن يعود إلى وطنه ؟ » .

* * *

وسمح لى بعد لأى بالنزول إلى البر ، فدخلت بلدى بعد غيبة تقرب من ثمانية أعوام ، وحيدا فريدا كما خرجت وحيدا فريدا ، أجهل مصيرى وما قدر لى . . .

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ الجموع بقلم كبير كتاب الاسكندناف الشاعر النرويجي كنوت هامزون ـ منقول عن الألمانية (مطبعة الحلبي)

٢ ـ الحركة الاشتراكية بقلم رمزي ما كدونالد ـ منقول عن الانجليزية ـ (مطبعة الياس انطون الياس)

٣ ـ ماهي النقابة ؟ (مطبعة المجلة الجديدة)

٤ ـ مقالات المرابي

٥ ـ قصص من العالم (مطبعة الاعتماد)

كتب تحت الطبع

١ ـ المحرومون

٢ ـ زحف المحاربين القدماء ـ قصة تمثيلية منقولة عن الألمانية

٣ ـ عائلة أبو الفضل ـ قصة مصرية .